سيكولوجية السخرية في أدب الجاحظ

محمد خضر الكوسا

نريد بسيكولوجية السخرية هنا، الكشف عن الدوافع او البواعث النفسية التي وجهت الجاحظ الى السخرية والمبالغة فيها والاكثار منها، حتى لكأن السخر مزاج ركب فيه او غريزة فطر عليها.

وان الباحث ليجد نفسه مضطرا الى الوقوف عند هذه الكثرة غير العادية من السخريات التي نثرها الجاحظ في ما وصل الينا من كتبه وأخباره والتي تناولت مختلف طبقات المجتمع وفئاته، فلم يسلم منها احد، ولا سيما المثقفون والمفكرون، ومنهم من كان من اعلام عصره في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، كالنظام وابي الهذيل العلاف ـ امامي المعتزلة ـ والنابهون في زمنه على الاجمال.

بل لقد تجاوزت سخرياته أعلام عصره الى اعلام العصور الغابرة، فسخر من ارسطو ـ بحق ـ وهو من اعظم الفلاسفة في تاريخ الفكر الانساني كله.

ان السخرية تتضمن ـ منطقيا ـ معنى الاستعلاء على المسخور منه، والبراءة مما فيه من نقص او عيب او تشوه، وان الذي يسخر من مجتمعه كله بمختلف فئاته وطبقاته، حقيق بأن يكون هو نفسه موضوعا للبحث النفسي الهادف الى الكشف عن البواعث النفسية التي حملته على ان يرى الكمال في نفسه والنقص في الاخرين.

وليس من شك في ان القول المشهور وهو ان الجاحظ كان بطبعه ميالا الى السخر والهزل والفكاهة وانه انما كان يفعل ذلك ترويحا عن قارئ كتبه الضخمة، ودفعا للسأم والملل، واستجلابا للنشاط الذهني، والجلد على مواصلة القراءة، كما يزعم هو نفسه، انما هو قول مضلل عن الحقيقة التي تكمن وراء تلك السخريات، والتي غفل عنها صاحبها، اذ المعروف المقرر في علم النفس ان البواعث النفسية شديدة الخفاء على صاحبها، وانه لو اكتشفها ووعاها لكفكف من اندفاعه في ما اندفع اليه ولعدل من سلوكه.

وقد ضلل قول الجاحظ هذا كثيرا من الباحثين، ولا سيما من المحدثين فجعلوه اساسا لتعليلاتهم لهذه الظاهرة البارزة في كتابات الجاحظ.

يقول الاب فيكتور شلحت اليسوعي في كتابه " النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ " (وهكذا يتضح لنا ان الدعابة والبطالة، كالاستطراد او الاطالة، ليست عند الجاحظ الا اسلوبا من اساليبه الفنية يتكيف به مع حال قارئه، ليؤمن لكلامه البلاغة .. وكان يهدف ايضا الى مصلحة قارئه ليزيده ثقافة ويضمن له الحصول على ما يحتاج اليه من العلم والمعرفة).

ويقول عبد الحكيم بليغ في كتابه " النثر الفني واثر الجاحظ فيه " ان ابا عثمان كان (يقصد الترويح عن النفس المكدودة ببعض الهزل حتى لاتسأم من ذلك الجد المتواصل)، كما ان تعليل شارل بلا القائل ان الجاحظ (اراد ان يقاوم اثناء مكثه في بغداد تيارا عاما من الجد والكآبة والصرامة) تعليل بعيد عن الحقيقة شأن التعليلات السابقة.

فما حقيقة البواعث النفسية التي قد تفسر هذه الظاهرة تفسيرا ادنى الى الوضوح، والتي تكمن وراء هذا الميل الحاد عند الجاحظ الى السخرية؟

ان قراءة سريعة لسيرة ابي عثمان كافية للكشف عن تلك البواعث، نسبه ونشأته ويتمه وقبحه وحتى لقبه.

لقد عاش الجاحظ في بيئة مقياس التفاضل فيها هو النسب، فمكانة الفرد في المجتمع يحددها نسبه واسرته، اما علمه وأدبه وفضله فتأتي في المقام الثاني او قد لايكون لها قيمة على

الاطلاق .

ولتوضيح قيمة النسب في المجتمع العربي في القرن الثاني للهجرة ، يكفي ان نورد لهذين الخبرين لنعلم مبلغ حرص العرب على الانساب وتفاخرهم بهـا .

روى الجاحظ قال : قلت لأبي الربيع الغنوي : يا ابا الربيع من خير الخلق ؟ فقال : الناس والله .

فقلت : ومن خير الناس ؟ فقال العرب والله .

فقلت : وفمن خير العرب ؟ فقال مضر والله .

فقلت : فمن خير مضر ؟ فقال قيس والله .

فقلت : فمن خير قيس ؟ فقال يعصر والله .

فقلت : فمن خير يعصر ؟ فقال غني والله .

فقلت : فمن خير غنى ؟ فقال المخاطب لك والله .

فقلت : فأنت خير الناس ؟ فقال : نعم اي والله .

فقلت : أيسرك ان تحتك بنت يزيد بن المهلب ؟ فقال : لا والله .

فقلت : ولك ألف دينار ؟ فقال : لاوالله

فقلت : فألفا دينار ؟ فقال : لا والله .

فقلت : ولك الجنة ؟ فأطرق برأسه ثم قال على الا تلومني .

وروى الجاحظ ايضا قال : قلت لعبيد الكلابي : ايسرك ان تكون هجينا ولك الف دينار ؟ فقال : لا احب اللؤم بشيء .

فقلت : ان امير المؤمنين – يعني المعتصم ابن امة .

فقال : اخزى الله من ا[illegible]ه .

فقلت : نبيا الله اسمعيل ومحمد ابنا امة .

فقال : لا يقول هذا الا قدري .

فقلت : وما القدري ؟ فقال : لاأدري الا انه رجل سوء .

على ان في تاريخ الاسلام حادثة مشهورة موثقة لا يرقى الشك اليهـا ، فقد اختار النبي (ص) ابنة عمته زينب – وهي هاشمية – زوجا لابنه بالتبني زيد بن حارثة ، فأبت اباء شديدا ان تتزوج من دعي ولم تذعن الا بعد ان نزل قوله تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) .

فقبلت زينب على مضض ، وتم الزواج ، الا انها ظلت تعاشر زيدا على كره منهـا واباء ونفور ، وهو يشكو ذلك الى النبي والنبي يقول له في كل مرة : امسك عليك زوجك حتى نزلت الاية التي تحرم التبني وهي الاية ٣٧ من سورة الاحزاب .

هكذا كان شأن النسب في المجتمع الذي عاش فيه الجاحظ ، فلنبحث الان عن نسبه وأصله .

لقد تضاربت الاراء او الروايات حول هذا الموضوع فمنها ما يفيد انه كناني ليثي ومنها ما يؤكد انه مولى ابي القلمس عمرو بن قلع الكناني و ان جده اسود يقال له فزارة كان جمالا عند ابن قلع .

ومن المعلوم ان اسم الجاحظ (عمرو) وان اسم ابيه (بحر) ولكننا لا نعلم شيئا عن (بحر) هذا ، كما اننا لا نعلم شيئا عن جده سوى انه كان اسود يقال له فزارة اي انه كان عبدا .

ومما يرجح صحة الرواية الثانية شهادة خال ام الجاحظ يموت بن مزرع ،، (وكان جد الجاحظ اسود اللون يقال له فزارة جمالا لعمرو بن قلع الكناني) .

ومما يرجح صحتها ايضا ان الجاحظ نفسه كان اسود اللون ، كما جاء في ثمرات الاوراق لابن حجة الحموي .

ونحن نعلم ان كان من عادة الشعراء والبلغاء العرب التفاخر بأنسابهم والشعر الجاهلي والاموي والعباسي حافل بالفخر بالاباء والاجداد، فاذا سكت الشاعر او البليغ عن ذكرنسبه واغفل الحديث عن ابيه وجده وفخر بغير ذلك من دواعي الفخر ، علما انه كان مجهول النسب او مغموزه او وضيعه .

وهذا المتنبي اشهر شعراء العربية قاطبة كانيتحاشى ذكر ابيه حتى اننا لا نجد في ديوانه كله اية اشارة الى هذا الاب الذي قيل انه كان سقاء في الكوفة يبيع الماء .

وكذلك نجد الجاحظ ، فعلى كثرة ما كتب لا نعثر في ما كتبه بشيء عن نسبه او عن اسرته وعن ابيه وجده ، وهذا يرجح ان لم يؤكد انه كان من اسرة وضيعة ، وان اباه كان – كما قدمنا – مولى جمالا عند ابن قلع ، وليس في هذا ما يدعو الى الفخر بل فيه كل ما يشعر بالالم والمرارة والانسحاق .

نشأ الجاحظ اذا في اسرة وضيعة وهي الى ذلك اسرة فقيرة ، وهذا عامل آخر من عوامل الاحساس بالقهر والظلم الاجتماعي في تلك البيئة التي عاش فيهـا .

فقد كان في صباه يبيع الخبز

والسمك وكفى بذلك دليلا على الفقر الذي كانت الاسرة تعاني منه ، فلم يتح له التفرغ لطلب العلم في صباه كما يفعل ابناء الاسر الميسورة ، وتحدثنا الروايات انه كان (يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للمطالعة) كما جاء في معجم الادباء لياقوت .

وهذا يدل على امرين :

الاول : انه كان يطمح الى الانسلاخ عن طبيعته الاجتماعية الى طبقة اعلى ولا سبيل امامه غير العلم يشق به طريقه صعدا ويخترق به الحواجز الاجتماعية التي كانت تفصل بين الطبقات .

الثاني : انه كان مدفوعا الى ذلك بباعث نفسي هو التعويض عن حرمانه من وجاهة النسب ورفعته ، وحرمانه من المال الذي اخذ منذ القرن الثالث للهجرة يحل تدريجيا محل الاحساب والانساب ، ويفتح لاصحابه ابواب القصور والبيوتات العريقة الكريمة كما نجده في شعر ابن الرومي – وهو يتحدث عن التجار والشرط الذين حصلوا على ما يتمنون بالمال – حيث يقول :

وتجار مثل البهائم فازوا
بالمنى في النفوس والاحباب
شرط خولوا عقائل بيضا
لا باحسابهم بلا الاكساب

وثالثة : الاثافي في شعوره بالحزن والمرارة والقهر ، يتمه – توفي ابوه وهو طفل – وما كان عليه من قبح ودمامة فقد كان (مشوه الخلق جاحظ العينين) وكان (قصير القامة دميم الوجه يضرب ببشاعته المثل) حتى لقد قال فيه احد الشعراء كما جاء في الفرق بين الفرق للبغدادي :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا
ما كان الا دون قبح الجاحظ

وحسبنا هذا البيت دليلا على الصورة المتناهية في البشاعة التي كان عليها . على ان صاحب الوفيات يروي عن الجاحظ نفسه قوله (ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني .)

وجاء في سرح العيون لابن نباته عن الجاحظ قوله (اتتني امرأة وانا على باب داري فقالت : لي اليك حاجة وانا اريد ان تمشي معي . فقمت معها الى ان اتت بي الى صائغ يهودي فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت فسألت الصائغ عن قولها فقال : انها أتت الي بفص وامرتني ان انقش عليه صورة شيطان ، فقلت : يا سيدتي ما رأيت الشيطان ، فأتت بك) ..

وكما لازمته بشاعته المفرطة لازمه لقبه (الجاحظ) ولصق به فكان علما عليه ، وتجاهل الناس اسمه (عمرو) ، واغفلوه ، وكان ذلك يؤلمه ويحز في نفسه ، ويشعره شعورا عميقا بقسوة المجتمع وظلم الحياة ، ولهذا كان يجهد نفسه في ان يقرر في اذهان الناس ، ان اسمه (عمرو) وانه يحبان يدعى بهذا الاسم وانه ارشق الاسماء واخفها واظرفها واسهلها مخرجا ، وكان يسميه الاسم المظلوم لانهم الصقوا به الواو التي ليست من جنسه ولا فيه دليل عليها ولا اشارة اليها . وكان يقول ان هذا الاسم لم يقع في الجاهلية والاسلام الا على فارس مذكور او ملك مشهور او سيد مطاع ، او رئيس متبوع ، امثال(عمرو بن هاشم) جد النبي (ص) وعمرو بن سعيد الاكبر وعمرو بن العاص وعمرو بن معد يكرب) .

ولكن جهوده ذهبت عبثا ولصق به هذا اللقب الى الابد .

جميع هذه العوامل التي ذكرناها خليقة بان ايكون لها اثرها العميق المؤلم في نفس ذلك الصبي الذي القاه ابواه في مجتمع لا مكان فيه – ككل المجتمعات – الا للقوي الغني الوسيم او لمن حاز – على الاقل – صفة من هذه الصفات ، ويسحق فيه الضعيف الفقير الدميم سحقا .

فاذا عرفنا ان السلوك (يتحدد في السنوات الاولى للطفل) وان الشعور بالدونية والنقص (يدفع الى التعويض بشكل تلقائي بل وفيزيولوجي) كما يقرر علماء النفس ، وان اسباب الشعور بالسفلية والنقص قد اكتملت عند الجاحظ في وجهه وبدنه ولونه ووضعه الاجتماعي ، ابيه وجده ونشأته وفقره ولقبه ، و ان سببا واحدا منها كاف لخلق ذلك الشعور ، فكيف اذا اجتمعت كلها . وان هذه الاسباب تكون – كما يقول علماء النفس – واقعية في الحالات العضوية او الوظيفية .. وقد تنشأ عن وضعية اجتماعية : ولد فقير في بيئة تتظلب منه و عا اقتصاديا او طبقيا او عائليا معينا) ..

اذا عرفنا ذلك ، انكشف لنا السر في امور كثيرة في حياة الجاحظ ، انكشف لنا السر في اقباله الشديد على القراءة والسر في اكترائه دكاكين الوراقين ، والسر في تلك الثقافة الموسوعية الشاملة التي امتلكها ، والسر في

بقائه طول حياته عزبا لم يتزوج، والسر في انتقاله من البصرة الى بغداد ، وانتحاله مذهب الاعتزال ، واستعفائه من رئاسة ديوان الرسائل ، ورغبته الجامحة في ان يحيا - لو استطاع - حياة عقلية صرفة ، واخيرا السر في لجوئه الى السخرية التي لم يكد يسلم منها احد .

ان وراء هذه السيرة كلها باعث نفساني عذب هو (التعويض) بالمفهوم الذي حدده وشرحه (الفريد ادلر)التعويض المتولد عن شعوره بالدونية والنقص والذي كان مدفوعا اليه بشكل تلقائي بل وفيزيولوجي .

وليس الجاحظ بدعا بين النابهين في اندفاعه الشديد الى التعويض حلا لمشاكله التي كان يواجهها ، وتخفيفا لآلامه النفسية التي كان يعاني منها ، فان الكثيرين من امثاله ممن اصيبوا بما اصيب به او بعض ما اصيب به ، قد فعلوا الشيء نفسه ، اي انهم خاضوا معركة التعويض بدافع لا يقاوم هو الام الشعور بالدونية والنقص التي تنهش القلوب والصدور .

يقول (ادلر) : (اننا نقدر ان نضع مبدأ عاما ينص على ان جميع الاطفال ذوي الاعضاء غير العادية يشتبكون في عراك مبكر مع الحياة .. ولا تلبث ان تتولد في نفوسهم رغبات التعويض والملل، وميل للقوة غالبا ما يخفونه ويفتشون خفية وسرا لكي يضعوه موضع التنفيذ)

ومن خير الامثلة على ذلك ، الفيلسوف الالماني المشهور (عمانوئيل كانط) الذي كان ذا جسم قميء وقامة قصيرة وبرود جنسي فانصرف بكليته الى الحياة العقلية وبالغ في التعويض - وسنرى ان الجاحظ فعل الشيء نفسه - حتى بلغ (حد القساوة المفرطة والفظاظة الوحشية على عواطف الانسان وميوله ، في فلسفته الاخلاقية ، فاهتم بتقوية الارادة لترد عنه غائلة الاحساس بالدونية وتقضي على مشاعره الداخلية فأله الواجب وقدسه لنسيان نقصه وتشويهه الجسماني) كما يقول الدكتور علي زيعور .

ولم يتزوج كانط لانه كان يرى نقصه ونفسه في الاخرين ، وعوض عن ذلك بتكريس وقته للكتب والقراءة .

وقد يكون الجاحظ لم يتزوج للسبب نفسه هروبا من منظر وجهه الكريه كلما نظر الى وجه زوجه ، ورب قائل يقول : ان الجاحظ كان يتسرى بالجواري ، وردنا عليه ان التسري غير الزواج .

ان رجحان صحة نظرية التعويض، هذه تؤيده شواهد كثيرة ، فالاديب والمفكر الالماني نيتشه كان يعاني من امراض عدة ، وكان ضعيفا مشلولا لم تفارقه الالام الجسدية طوال حياته ، فثار على العجزة والبسطاء من الناس وعلى كل من يقف الى جانبهم ، فهاجم سقراط وابيقور وافلاطون وكانط وشوبنهور وصب نقمته على المسيحية وسماها دين الضعفاء اذ هي تقوم على عواطف الشفقة والاحسان والرأفة وغير ذلك من العواطف التي يصفها بالذليلة ، والف كتابه (ارادة القوة) ودعا الى ابادة الضعفاء واختيار نسل ممتاز .

وقد اظهر علم النفس المرضي ان المصابين بالشلل مثلا يظهرون تكبرا جنونيا ، وهذا ما يفسر سلوك نيتشه الذي وصفناه ، كما يفسر تلك الارادة ، الجبارة والقدرة العقلية الخارقة والجلد المتواصل على الكتابة عند الجاحظ وهو مريض يعاني الاما جسدية مبرحة ، فقد الف كتاب الحيوان وهو مفلوج ، والدليل على ذلك قوله (وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه ادل ذلك العلة الشديدة).

والف كتاب البخلاء وهو مفلوج ايضا وصرح بذلك في حواره مع محفوظ النقاش حين قال له هذا (يا ابا عثمان .. انت رجل طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفا ..)

وألف كتاب البيان والتبيين بعد فراغه من كتاب الحيوان ، وقبيل وفاته بقليل يدل على ذلك قوله فيه (كانت العادة في كتب الحيوان ان اجعل في كل مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات الاعراب ونوادر الاشحاء لما ذكرت من اعجابك بذلك فاحببت ان يكون حظ هذا الكتاب من ذلك اوفر ان شاء الله تعالى) .

وهذه الكتب الثلاثة اعظم كتبه واشهرها واضخمها ولا سيما كتاب الحيوان على ان (الفريد ادلر) نفسه كان مريضا مشوه الجسم ، والكساح الذي اصيب به في شبابه وضعف بنيته اضفينا على جسمه شكلا مشوها ولذلك كان لا هم له الا البحث عن علاج لشفاء هذه النفس المتألمة من متطلبات التعويض التي تفوق قدرة الجسد المتواضعة ، وللقضاء على الخوف من فقدان احترام المجتمع ، وكان سعيه يهدف الى اشعار الناس

بأهميته وانه شيء ذو قيمة .

وهذا يفسر لنا قدرته الكبيرة على العمل والانتاج ، مع انه صاحب تكوين جسدي ضعيف ، كل ذلك (تعويض) اي انتقال من النقيض الى النقيض تحدثه الارادة .

والارادة عند (ادلر) لا تمثل شيئا غير الميل الى الانتقال من شعور بعدم الاكتفاء الى شعور بالاكتفاء) .

وقد رأينا كيف استوفى الجاحظ جميع اسباب التعويض : نسب وضيع واسرة فقيرة وبشاعة مخيفة ولون اسود ولقب مقيت وقامة قصيرة ، اي كل ما يشعر بالدونية ويولد الاحساس الحاد بالنقص، ولذلك كان هدفه الاول ان يشعر الناس بقيمته .

يقول (ادلر) (الدافع الاول في الحياة ، وغاية النشاط الانساني ، ارادة القوة وحب السيطرة او الرغبة في ان نشعر الناس بقيمتنا) .

فحصل ثقافة موسوعية ، ومال الى ان يحيا حياة عقلية ، ووافق ميله هذا ما كان عليه المعتزلة من تقديم العقل وتحكيمه في كل شيء ، فانضم اليهم ، واخذت مؤلفاته تتلاحق وارتفعت مكانته ، وعلت منزلته عند الخاصة والعامة ، وتدفقت عليه الاموال ، ولكن الام نفسه لم تهدأ ولم تسكت ، وذلك انه اذا كان قد استطاع ان يطرد الفقر ويرتفع عن الطبقة الاجتماعية الدنيا التي كان فيها ، فان قبحه ولقبه ظلا ممسكين بخناقه في نومه ويقظته تفتك آلامهما بنفسه ، وكلما الحت عليه تلك الالام ، اشتد الحاحه في اثبات ذاته واعطاء نفسه قدرا فوق اقدار الناس .

ومن هنا ، كانت الرغبة العنيفة عنده في السخرية تخفيفا لتلك الالام ، وشفاء لما في نفسه من طريقها ،

وليس من شك في ان الجاحظ قد نجح كل النجاح في تحقيق التعويض الضروري لاقامة التوازن النفسي من غير طريق السخرية ، وبعبارة اخرى ، لو حذفنا السخر من اعمال الجاحظ ، لكان في هذه الاعمال الكفاية وما فوق الكفاية لتحقيق الرضا النفسي والتعويض بالمفهوم الذي شرحناه .

ولكن التعويض انواع وليس نوعا واحدا . فهناك:

اولا : التعويض الايجابي وهو ما يؤدي الى النجاح حيث يبلغ الفرد ما رنا اليه للتغلب على شعوره بالالم .

ثانيا : التعويض المبالغ فيه (فوق تعويض) حيث يبذل الجهد الحد الاقصى المستطاع بل وحتى ما فوق الحد المستطاع

وقد حقق الجاحظ هذين النوعين من التعويض مع استثناء السخرية كما سبقت الاشارة ،.

ثالثا : التعويض الخفي وهو الميل الى تهشيم الاخرين وتنقص حسناتهم ، او تفوقهم .

وهذا النوع الاخير ، أي التعويض الخفي ، هو الذي يعنينا الان ، لانه هو الذي يلقي الضوء على الاسباب العميقة للسخرية في نفس الجاحظ .

ان السخرية في جوهرها استعلاء على الاخرين فيه معنى النكاية والتحقير ولا يتجلى التعويض في اكثر مظاهره حدة الا في هذا الاستعلاء على الناس ولا سيما على النابهين واصحاب المكانة على الاجمال .

فاذا رجعنا الى سخريات الجاحظ وجدنا انه لا يستعلي على اشخاص معينين، معدودين ، او على فئة دون فئة ، وانما يستعلى على مجتمعه كله بمختلف فئاته وطبقاته بل على الخليفة نفسه .

فلنعرض الان لمظاهر هذا التعويض الخفي في سخريات الجاحظ .

ففي (رسالة التربيع والتدوير) نجده يهشم احمد بن عبد الوهاب ويحطمه تحطيما يهشمه سخرية في مثل قوله (.. ولو لم يكن لحسن وجهك الا انه قد سهل في العيون تسهيلا ، وحبب الى القلوب تحبيبا ، وقرب الى النفوس تقريبا ، حتى امتزج بالارواح وخالط الدماء وجرى في العروق ، وتمشى في العظام ، بحيث لا يبلغه السم ولا الوهم ، ولا السرور الجديد ولا السراب، الرقيق ، لكان في ذلك المزية الظاهرة والفضيلة المبينة) .

وقوله (.. وكيف وقد اصبحت وما على ظهرها خود الا وهي تعثر باسمك ولا قينة الا وهي تغني بمدحك،ولا فتاة الا وهي تشكو تباريح حبك)

وقوله يصف وجهه (.. هو احسن من القمر واضوأ من الشمس) وقوله (وانت ابدا قمر بدر) الى اخر ما في الرسالة من امثال ذلك.

وحسبنا ان نشير الى بعض السخريات التي لا بد منها لاثبات التعويض الخفي - والتي يبرز فيها بروزا حادا استعلاؤه على اعلام كبار في الفكر والفقه والسياسة .

فقد سخر من ارسطو سخرية موجعة ،

بل جعل احد صيادي السمك يسخر منه ، واستعلى عليه بان اقام نفسه منه مقام الاستاذ .

وسخر من النظام وهشمه تهشيما وهو استاذه وشيخ المعتزلة واكبر علماء الكلام في عصره .

وسخر من ابي الهذيل العلاف ، وهو ايضا شيخ المعتزلة ومن اكبر فلاسفة الاسلام وعلماء الكلام .

وسخر من الامام ابي حنيفة ووصمه بالجهل بالنحو والجهل بحياة الناس الواقعية ، ولا يقوم فقه الا عليهما .

وسخر من محمد بن الجهم وهو والي الاهواز وعالم من سراة العلماء في القرنين الثاني والثالث ، وحطمه تحطيما فلم يترك نقيصة ولا عارا ولاسبة ولا عيبا من المعايب ولا رذيلة من الرذائل الا وصمه بها ونسبه اليها .

وقد بلغ (التعويض الخفي) عند الجاحظ ذروته حين طمح الى ان يزيح الخليفة عن كرسيه ويتربع هو محله .

سأله احدهم : يا ابا عثمان كيف حالك ؟ فقال سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحدا واحدا ، حالي ان الوزير يتكلم ، برأيي وينفذ امري ، ويواتر الخليفة الصلات الي ، وآكل من لحم الطير اسمنها ، والبس من الثياب افخرها ، واجلس على ألين الطبري واتكيء على هذا الريش ثم اصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ، فقال له الرجل :

الفرج ما انت فيه ، قال : بل احب ان تكون الخلافة لي ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري ويختلف الي فهذا هو الفرج

وهذا - ولا شك - هو ما يسمونه في علم النفس (جنون العظمة) أو (هذاء العظمة) وللجاحظ في هذا الهذاء اضراب كثيرون ممن اصيبوا بما اصيب به او ببعض ما اصيب به من اسباب الشعور (بالدونية) التي دفعتهم الى التعويض الخفي ، وكلهم امثلة صالحة للاستشهاد بها على تأكيد ما ذهبنا اليه، نذكر منهم بشار بن برد وابا العلاء والمتنبي من القدماء وطه حسين من المحدثين ، وقد زعم هذا الاخير - وهو يفاخر بدقة معرفته بديكارت وفلسفته ومنهجه - انه يعرفه معرفة لو اعلنها في فرنسا (لاندكت لها السوربون ولاضطربت لها الكوليج دي فرانس ولاعلن لها المجتمع العلمي الفرنسي افلاسه) حسبما وصف نفسه في مقال له في جريدة السياسة الاسبوعية ٨ مايو ١٩٢٦ .

وهذا هو بعينه (اهذاء العظمة) الذي رأيناه عند الجاحظ الذي تحولت ارادة التعويض عنده الى لون من النرجسية تسمية ب (النرجسية الفكرية) وتتجلى في كثير مما كتب ولا سيما في مقدرته البيانية والجدلية التي تشبه السوفسطائيين ، فهو يمدح الشيء ويذمه اذ يضع رسالة في مدح العلوم ورسالة في ذمها وكذلك في ذم الوراقين ومدحهم الخ وتصور ابلغ تصوير كم كان مؤلما ذلك الشعور الشديد الوطأة الذي يعذب نفسه والذي يأتيه مما ذكرنا من اسباب وفي طليعتها بشاعة الوجه ، فيهرب منه الى اجواء فسيحة في عالم المنطق والفكر والعقل ، ليجد فيها شيئا من العزاء والراحة ، فيتعلق بها تعلق العشق والافتتان .

محمد خضر الكوسا

التجديد في الشعر العربي

بقلم: أحمد بوبس

عندما يمسك احدنا القلم ليكتب قصيدة ، تكون الحداثة هاجسه الاول فهو يريد ان يكون مجددا ، فما هي هذه الحداثة ؟ او ذاك التجديد الذي نصبو اليه .. ؟

في اي حديث عن الحداثة او المعاصرة يبقى الكلام غير قابل للحسم ، ذلك انه كانت العلوم بمختلف فروعها ، تخضع لقوانين ونظريات ، وتحددها الارقام والمقاييس . فان الامر يختلف في الابداعات الادبية ، ولا سيما الشعر الذي يخضع لاعتبارات كثيرة . بعضها بيئوي ومعظمها شخصي ، فتجعل حدوده غير واضحة الملامح ، وأهم ماعاناه الشعر في العصر الحديث الصراع بين مصطلحي المعاصرة او الحداثة من جانب والتقليدية أو " الكلاسيكية " ، من جانب اخر ، وكثرت الاراء في ذلك ، حتى يكاد عددها يساوي عدد الشعراء أنفسهم . وهذا بالتالي جعل السبل تتفرق بالنقاد ، فتجعلهم لا يلتقون على صعيد واحد ، ولا يستقر بهم المقام عند رأي واحد ، ولن آتي هنا على ذكر الاراء التقليدية في هذا المضمار . وان كنت سأمر عليها في محاولتي لوضع رؤيتي للحداثة او المعاصرة .

وانه .. وان كنت أفضل استعمال كلمة معاصرة ، لأنها أكثر دقة في التعبير ، الا انني سأستعمل كلمة الحداثة لأنها الاكثر شيوعا .

بادىء ذي بدء . لا بأس ان أتوقف عند رأي أساسي لمفهوم التجديد ، ذاك الذي يرى ان الحداثة تكون في الشكل وحسب . ويرى انصاره ان التخلي عن العمود في القصيدة العربية ، هو شرط اساسي للحداثة . حتى ان البعض يحكم على القصيدة بمجرد النظر الى شكلها . وهنا لا بد ان نتفق ان مفهوم التجديد الذي نتكلم عنه يتناول الشقين اللذين يتألف منهما الشعر . وأقصد الشكل والمضمون .. فالشكل هو القالب الذي نصوغ وفقه القصيدة ، والمضون هو المادة التي نعبيء بها هذا القالب ، والعنصران - واعني الشكل والمضمون - هامان في عملية التجديد - فأين يقف الشعر العربي في مراحله التاريخية المتعاقبة من مصطلح الحداثة بشقيها .

العصر الجاهلي :

مثلما كانت الحياة الاجتماعية والسياسية - اذا صح التعبير - تقوم على النظام القبلي ، كانت القصيدة تقوم على نمط تقليدي ، فهي تبدأ بوصف الاطلال والبكاء على الديار . ومن ثم وصف الابل والكلأ ، والمرعى ، والصحراء ، والحل والترحال ، والحروب ، ومجالس الانس واللهو ، ووصف المطية .. وجاءت حركة الصعاليك ثورة على ذلك الواقع الاجتماعي القائم على الامتيازات لزعماء القبائل واضطهاد للفقراء . ورافقت هذه الثورة ثورة اخرى على النمط الشعري السائد والذي ذكرته قبل قليل ، وعلى صعيد المضمون ، نقف امام اغراض جديدة لهذا الشعر .

واذا كانت احاديث الصعاليك في بعض شعرهم تدور عن المغامرات ، ووصف الاسلحة ، والفرار ، وسرعة العدو ، والحديث عن الرفاق ، والغزوات على الخيل ، واحاديث التشرد .. فان الجانب الاجتماعي والاقتصادي هو الاهم بين هذه الاغراض ، فمعظم الصعاليك كانوا من الاغربة (الغراب من كان ابوه حرا وامه امة) الذين كانوا يعانون من التمييز العنصري ، والفقر كان قاسما مشتركا بينهم . ففي شعر عروة بن الورد - على سبيل المثال - احاديث طويلة عن هوان منزلة الصعاليك ومقامهم خلف البيوت ، بينما يرسم السليك بن السلكة صور

انسانية مؤثرة لما تلاقيه الاماء السود من الضيم والهوان – وامه واحدة منهن – وهو عاجز لفقره، عن ان يفعل شيئا من أجلهن ، فالفقير دائما مقهور وأقل الناس مرتبة ، كما يقول عروة :

ذريني للغنى أسعى فاني
رأيت الناس شرهم الفقير
وأدناهم وأهونهم عليهم
وان أمسى له حسب وخير
يباعده القريب وتزدريه
حليلته .. ويقهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال
يكاد فؤاد لاقيه يطير
قليل ذنبه والذنب جم
ولكن للغنى رب غفور

هذا في المضمون .. اما على صعيد الشكل ، فنجد انشعر الصعاليك تخلص – اول ما تخلص – من المطولات . فأشعارهم – في معظمها – قصيرة . وقد لا يتجاوز عدد ابيات بعض المقطوعات عدد اصابع اليد الواحدة . باستثناء بعض القصائد الطويلة ، كتائية الشنفرى ، ورائية عروة بن الورد ، وفائية صخر الهذلي .. كما تخلصت اشعار الصعاليك من المقدمات الطللية .. ولم يكونوا يهتمون بالترصيع كما ظهرت القصة الشعرية التي دونوا فيها كل ما يدور في حياتهم الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة جيدة للفن القصصي . كما تجلت الوحدة الموضوعية في قصيدة الشاعر الصعلوك . فالمقطوعة الشعرية الواحدة ، تعالج موضوعا واحدا وحسب ، بينما بالامكان تقسيم قصيدة النمط التقليدي الى عدة قصائد كل منها مستقلة بموضوعها ، ولا يجمعها معا الا الوزن والقافية .

لكن الشعر الجاهلي بشقيه النمطي والمتصعلك يبقى ابن بيئته الصحراوية ، فالمفردات مستمدة من هذه البيئة التي نبت الشعر فيها . مفردات قاسية مثل قساوة الصحراء ، وغريبة عنها غرابة وحشة الرمال ، وقد نحتاج الى قاموس لمعرفة معاني معظمها ، ولنتوقف عند ثلاثة أبيات لتأبط شرا حيث يعقد مقارنة بين سرعة الظليم والخيل السريعة ولنلمس غرابة الفاظها :

وحشحث مشعوف النجاء كأنني
هجف رأى قصرا سمالا وداجنا
من الحص هزروف كأن عفاءه
اذا استدرج الفيفا ومد المغابنا
أزج زلوج هذرفي زفازف
هزف ، يبذ الناجيات الصوافنا

العصر الاموي :

في مرحلة صدر الاسلام تراجع الشعر الى مرتبة متأخرة ، فقد انصرف الناس عنه الى الدعوة الجديدة . ولكن ما أن أطل العصر الاموي حتى عادت للشعر مكانته الاولى ، وفي هذا العصر شهدت الحياة الاجتماعية والسياسية تحولات كبيرة ، فانتشرت الحياة الحضرية ونشأت المدن ، وعلى الصعيد السياسي عرفت الحياة السياسية لأول مرة نظام الحكم المتمثل فيالخلافة وما نشأ عنها من تقسيمات ووظائف ادارية ، وكان لا بد لذلك كله من ان يترك آثاره على المضامين الشعرية التي تطرأ لها الشعر الاموي .

ولعل الشعر السياسي يعد من ابرز الاغراض الشعرية الجديدة ومما ساهم في ظهور هذا النوع من الشعر قيام شكل جديد من الحكم وما رافقه من صراعات سياسية دامية ، بل ان الشعر السياسي انما جاء ليعبر عن مواقف وآراء الاحزاب المتصارعة ، فقد انقسم الناس الى فريقين فريق مؤيد للحزب الاموي ، وفريق مؤيد للاحزاب المعارضة كالشيعة والعلويين والخوارج والزبيريين .

وكان شعراء الامويين يدافعون عن موقف الحكم ، ويحاولون الباسه اللبوس الديني ، ومنهم جرير والفرزدق ، أما العلويون فكان من شعرائهم الكميت بن زيد الاسدي المعبر عنآرائهم السياسية والمدافع عن حقهم في الخلافة ، وعرف من شعراء الزبيريين عبيد الله بن قيس الرقيات ، ومن شعراء الخوارج عمران بن حطان .

ومن الاغراض الشعرية الجديدة ، الشعر الديني وما نتج عنه من شعر الوعظ والارشاد ، وظهر الغزل العذري الذي عرف عنه الكثير .

هذا فيالمضمون .. أما في الشكل، فقد ظهرت في الشعر الاموي مجموعة من الخصائص تميزه عن العصر الجاهلي .. ولا شك ان لغة القرآن قد لعبت دورا هاما في صياغة جديدة للشعر ، ولعل اولى تأثيرات القرآن في الشعر كان التكرار سواء تكرير كلمة واحدة او جملة بكاملها والغاية منه التقرير والتأكيد او الافهام والاقناع ، من ذلك قول الكميت بن زيد الاسدي في مديح بنيهاشم :

فانهم للناس فيما ينوبهم
غيوثا حيا ينفي به المحل ممحل
وانهم للناس فيما ينوبهم
أكف ندى تجدي عليهم وتفضل
وانهم للناس فيما ينوبهم
عرى ثقة حيث استقلوا وحللوا
وانهم للناس فيما ينوبهم
مصابيح تهدي من ضلال ومنزل

وفي مرثية مالك بن الريب لنفسه نراه يفرط في التكرار حتى ليكاد يكرر كلمة " در " سبع مرات في أبيات خمسة فقط .

والاقتباس احد اشكال تأثر الشعر بالقرآن . وجاء على انواع : فهناك الاقتباس الحرفي مع تحوير بسيط او كبير في تركيب الجمل وترتيبها بما يحافظ على وزن الشعر وقافيته ، وهناك اقتباس المعنى او الفكرة .

اما في الاسلوب ، فقد تخلصت القصيدة من المقدمة الطللية وما اليها من وصف الناقة والصحراء والرحلة..اما الالفاظ فقد توسعت دلالاتها وازدهرت الفاظ جديدة اكثر رقة بينما اختفت تلك اللفظات القاسية الغريبة .

العصر العباسي :

في الواقع ، يعتبر العصر العباسي من اهم العصور التي شهد فيها الشعر العربي قفزات كبيرة على صعيدي الشكل والمضمون ، ولنبدأ بالمضمون .

انصرف الشاعر فيهذا العصر عن الحديث عن الاطلال المهجورة الى وصف القصور العامرة ، وتحول عن وصف الصحراء ومسالكها وحيوانها الى وصف الرياض ومناظرها البهيجة ، ومضى يتحدث باسهاب عن جمال الربيع ، فالوصف كان احد الاغراض الشعرية الهامة في العصر العباسي . ولعل خمريات ابي نواس اهم ما يمثل ذلك ، وبرز شعر الغزل سواء ما كان منه الماجن ام العفيف ، ونما شعر الزهد الذي كان لها بدايات في العصر الاموي .

هذا فيتطوير الاغراض القديمة ، ولكن الشاعر العباسي تعداها الى اغراض جديدة ، فمن الاغراض التي استحدثها الشعراء العباسيون الشعر التعليمي ، حيث نظم نفر منهم بعض القصص والمعارف ، او السير والاخبار ، او التاريخ والفقه ومن الامثلة على ذلكقصيدة لأبان بن عبد الحميد نظمها في قصص كتاب كليلة ودمنة ، وتقع في اربعة عشرالف بيت ويستهلها بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنة
وهو الذي يدعى كليلة ودمنة
فيه دلالات وفيه رشد
وهو كتاب وضعته الهند
فوصفوا آداب كل عالم
حكاية على ألسن البهائم
فالحكماء يعرفون فضله
والسخفاء يشتهون هزله
وهو على ذاك يسير الحفظ
لذ على اللسان عند الحفظ

ومن ذلك مزدوجة طويلة نظمها ابراهيم الفزاري ، في علم النجوم وتقع في عشرة مجلدات .. وقد بناها على ثلاثة شطور على هذا النمط :

الحمد لله العلي الاعظم
ذي الفضل ، والمجد الكبير الاكرم
الواحد الفرد الجواد المنعم
الخالق السبع العلا طباقا
والشمس يجلو نورها الاغساقا
والبدر يملأ نوره الآفاقا

كمانظم الاصمعي قصيدة طويلة في ذكر الملوك الجبابرة الهالكين والامم البائدة .

وظهر الشعر الساخر الذي يمثل احد اشكال اللهو التي ذخر بها العصر العباسي ، فكان الشعراء يأخذون القصائد المشهورة ويقلبونها في السخرية ، او يؤلفون فيها المقاطع الخاصة التي يسخر معظمها من العشاق العذريين الذي يصل بهم عشقهم الى الجنون او الموت ، ومن الامثلة الطريفة ما كتب بشار بن برد وحين أجرى قصة للعشق على حماره ، فقد ذكر احد الرواة انه مات لبشار حمار . فانتظر حتى اجتمع اصحابه اليه ، بأبدى لهم حزنا ، وألحوا عليه يريدون معرفة سبب حزنه وغمه ، فقال : انني رأيت حلما مزعجا ، رأيت حماري في النوم فقلت له : ما لك مت ؟ قال : انك ركبتني يوكذا ، فمررنا على باب الاصفهاني (صاحب الاغاني) فرأيت اتانا عند بابه ، فعشقتها فمت ، وزعم بشار ان الحمار انشده هذه المقطوعة :

سيدي مل بعناني
نحو باب الاصفهاني
ان بالباب أتانا
فضلت كل أتان

تيمتني يورحنا
بثناياها الحسان
تيمتني ببنان
وبدل قد شجاني
وبحسن و دلال
سل جسمي وبراني
ولها خد أسيل
مثل خد الشيفران
فبها مت ولو عشت
اذن طال هواني

فقال أحد جلسائه ، ما الشيفران؟
قال : مايدريني هذه من لغة الحمير ·· فاذا لقيتم حمارا فاسألوه ·

*

واذا كان التجديد في المضامين الشعرية للعصر العباسي قد أصاب سهما ، فان الشكل قد حظي بنصيب وافر من التجديد ، في هذا العصر بلغ الغناء مرتبة رفيعة ، وكثرت القصائد المغناة ، فكتبت الاشعار الخاصة لذلك ، وهذا ما دفع الشعراء الى اختيار الاوزان الخفيفة البسيطة ، ومجزوءات البحور المعقدة ، وشاعت المقطوعات القصيرة · اما القصائد الطويلة ، فاقتصرت على الشعر الرسمي (المديح ، والرثاء) ·

واهتمام الشعراء بقصائد الغناء دفعهم الى البحث عن اشكال جديدة فكان ان ابتدعوا وزنين جديدين هما المضارع والمقتضب ، وشاع استعمال الثاني لأنه أكمل نغما وايقاعا من المضارع ، كما ابتدع الشاعر العباسي ايضا وزن المتدارك (الخبب) ·

وكما جدد الشعراء العباسيون في الاوزان جددوا في القوافي · فخرجوا على نظام القافية الواحدة على الشكل التقليدي للقصيدة الذي يعتمد على البيت المؤلف من شطري الصدر والعجز فأبدعوا المزدوجات ، والمزدوج قصيدة لكل بيت فيها قافية تختلف عن قافية البيت الذي يسبقه والذي يليه ، بينما يتحد الشطران في البيت الواحد بالقافية ، وعادة تنظم المزدوجات على بحر الرجز ، وينسب هذا النموذج من القصائد الى الوليد بن يزيد ، فهو اول من استحدثه ، حيث صاغ فيه خطبة من خطب الجمعة ، وتلاه الشعراء وفي مقدمتهم بشار بن برد · ومن مثال المزدوجة ، ما مر معنا قبل قليل مزدوجة لأبان بن عبد الحميد نظمها في كتاب كليلة ودمنة ·

كما اوجد الشعراء العباسيون الرباعيات ،والرباعية مقطوعة تتألف من اربعة اشطر ، يتفق اولها وثانيها ورابعها في قافية واحدة · اما الشطر الثالث فغالبا ما يأخذ قافية مختلفة ، ومن مثال ذلك رباعية بشار بن برد والمشهورة التي يمازح بها جاريته ربابة :

ربابة ربة البيت
تصب الخل في الزيت
لها عشر دجاجات
وديك حسن الصوت

وتكثر الرباعيات في ديوان ابي نواس وخاصة في الخمريات والغزل ، وهي ليست مطالع لقصائد لكثرتها في الديوان ومن أمثلتها الطريفة قوله :

أدر الكأس واعجل من حبس
واسقنا ما لاح نجم في الغلس
قهوة كرجنة مشمولة
تنغص الوحشة عنا بالانس

وممن كان يكثر منها ابوالعتاهية سواء في الغزل او الزهد ، من مثل قوله في الموت :

الموت بين الخلق مشترك
لا سوقة يبقى ولا ملك
ماضر أصحاب القليل وما
أغنى عن الاملاك ما ملكوا

ومن الاشكال الجديدة المسمطات ·· وهي قصائد تتألف من ادوار ، وكل دور يتركب من أربعة أشطر او اكثر، وتتفق أشطر كل دور في قافية واحدة ما عدا السطر الاخير فانه يستقل بقافية مغايرة ، وفي الوقت نفسه تتماثل القافية في الاشطر الاخيرة من الادوار ، ومن امثلة المسمط المربع خمرية لابي نواس يقول فيها :

سلاف دن
كشمس وجن
كدمع جفن
كخمر عدن
طبيخ شمس
كلون و رس
ربيب فرس
حليف سجن
يامن لحاني
على رماني
اللهو شاني
فلا تلمني

الموشحات الاندلسية :

وغير بعيد عن ذلك نجد الموشحات الاندلسية ، التي تمثل قفزة كبيرة في التجديد ، واول ملامح هذا التجديد ، اهتمام الوشاحين بالتلوين في الاوزان ، والقوافي في الموشح الواحد ، وقد يسير الموشح على اوزان الشعر المعروفة ، وقد يخرج عنها ، والموشح يتألف عادة من أقفال وأبيات ، وقد تبلغ الاقفال ستة والابيات خمسة ، والقفل يتكون من شطرين او اكثر ، وقد يصل عددها الى ثمانية اشطر ، وتتفق الاقفال في ان لها قافية واحدة ، ويكون للاشطر الاولى قافية واحدة وللاشطر الثانية ايضا قافية واحدة ومن الامثلة موشحة الاعمى التطليلي التي قفلها الاول :

ضاحك عن جمان
سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان
وحواه صدري

اما البيت فأجزاؤه ايضا موزعة ما بين صدر وعجز وتتفق الابيات في الوزن وعدد الاشطر وقد تختلف بالقوافي وقد تتفق ، ولكن في البيت الواحد يكون للاصدر قافية واحدة وللأعجز قافية واحدة ، ومن نفس موشحة الاعمى التطليلي نقرأ البيت الاول /

آه مما أجد
شفني ما أجد
قام بي مقعد
باطش متئد
كلما قلت قد
قال لي أين قد

ثم القفل الثاني :

وانثنى خوط بان
ذا مهز نضير
عابثته يدان
للصبا والقطر

ثم البيت الثاني:

ليس لي منك بد
خذ فؤادي عن يد
لم تدع لي جلد
غير اني أجهد
مكرع من شهد
واشتياقي يشهد

وهكذا حتى يأتي القفل الاخير ليسمى الخرجة .

اذن ها نحن امام تجديد من نوع اخر يشهد على طواعية الاوزان الشعرية العربية – والسؤال .. هل جاء هذا التجديد من الفراغ ؟ لا شك ان هذا التجديد اعتمد على عاملين ، اولهما عامل البيئة الذي يلعب دورا هاما ويأتي التجديد تلبية لمتطلباته . فالحياة المترفة بل القمة في الترف التي وصلت اليها الحياة الاجتماعية في كل من بغداد والاندلس جعلت الشعراء يصلون بالشعر الى نفس السوية من الترف أتاحت لهم الانصراف الى ابتداع اشكال جديدة . اما ثاني العاملين ، فكان في ارتباط الشعر بجذوره ، فجاء استمرارا له ، ونلاحظ ان شكل القصيدة الذي يعتمد على العمود لم يقف حائلا في وجه اية محاولة للتجديد .

العصر الحديث :

وقبل الخوض في مسألة التجديد في الشعر العربي المعاصر . لابأس من وقفة عند اتجاهات التجديد ، وهي ثلاثة :

* أولها الشعر الحر " المسترسل "وقصائد هذا النوع حافظت على العمود الشعري وتخلت عن القافية ، فكان لكل بيت قافية تختلف عن قافية البيت الذي يليه والذي يسبقه ، ونجد هذا الاتجاه في الشعر المهجري سيما شعر اليا ابوماضي
* وهذا النوع لم يصمد طويلا مفسحا المجال لثاني الاتجاهين المتمثل في قصيدة التفعيلة التي خرجت عن العمود الشعري ، لكنها لم تخرج عن الوزن ، فلا بأس من الخروج عن نظام الشطرين واعطاء الحرية للشاعر يتلاعب بعدد التفعيلات في السطر الواحد ، على ان يبقى داخل الوزن الشعري .
* اما ثالث الاتجاهات ، فيأخذ به التطرف الى درجة التمرد على كل قيود القصيدة من وزن وقافية وصولا الى قصيدة النثر .

وازاء هذه الاتجاهات الثلاثة لا بد من قراءة سريعة لنماذج من الشعر المعاصر ، بالنسبة للقصيدة العمودية ، فان أهم ما تعانيه الحشو من اجل تصيد قافية او استقامة وزن . وهذا يدفع الشاعر احيانا الى اضافة كلمات غير مرتبطة بمعنى البيت . او اضافة كلمة مرادفة لسابقتها كأن يقول احدهم " وقد تفردت ابداعا واتقانا " أو " أنا نمثل تزوير و بهتانا " او في قوله

" عاش الجميع بهاصحبا وخلانا " أليس واضحا ان القافية اوقعت الشاعر في شراكها ؟ فاضطر الى تكرار كلمتين تحملان نفس المعنى من اجل استقامة الوزن " ابداعا واتقانا " تزويرا او بهتانا " ، " صحبا واو خلانا " فكلمة الابداع تفي عن الاتقان ، والتزوير تكفي عن البهتان وكلمة الصحب تقوم مقام الخلان ، هذا اضافة الى اضطرار الشاعر الى تكرار نفس الصور ونفس المعاني في مواضع كثيرة .

بالمقابل هناك نماذج من الشعر العمودي خلية من كل ماذكرته ، فخطت لنفسها طريقا جديدة ، من حيث المفردات او غرس القافية بحيث لا تكون دخيلة على البيت ، أضف الى ذلك الدخول بالقصيدة الى عوالم جديدة اجتماعيا او سياسيا لم تألفه من قبل . ولنتوقف عند بيتين لشاعرشاب معاصر :

يا غيمة تحت ثوب السمرة اشتعلت
في عري نهد كخيل البرق مندفع
ماذا اسميك ليس الليل تسمية
تليق بالسيل يغزو كل مرتفع

انها الجدة في استخدام المفردة والصورة وصنع القافية .

اذن كيف يكون التجديد داخل القصيدة العمودية ؟

هناك اولا المفردات غير المكرورة ، وليس مهما ان تكون الكلمة شائعة الاستعمال املا . لكن المهم ان تنحت داخل البيت نحتا ، فلا تكون غريبة عن البيت ولا زائدة على المعنى ، وثانيا التراكيب الشعرية وبناء الصور - وهذه بالتأكيد تخضع لمقدرة الشاعر ، اما محتوى القصيدة فذاك يعود الى مجمل ثقافة الشاعر ومواقفه ورؤيته السياسية والاجتماعية .

بعد ذلك .. ليس مهما الشكل الذي يلبسه القصيدة ، فهذا امر تفرضه اعتبارات اخرى منها الحالة النفسية للشاعر ، والموضوع المطروق ، وتتالي الايقاعات الموسيقية داخل نفس الشاعر .

واذا كان لقصيدة العمود محذور الحشو او الوقوع في شرك القافية . فان لقصيدة التفعيلة محاذير اكثر خطورة ، وهي سهولة امتطاء ناصية هذا النوع من الشعر ، وبالتالي جعله مبررا لانتهاك الوزن . وبالتأكيد فقدعانت التفعيلة بدورها من تقليدية جديدة ، وشهدت الغث كما عرفت الثمين ، ولنتأمل احد النماذج التي تعتبر مأخذا على قصيدة التفعيلة :

هذا الذي في خاطري نبع
من الحب الغزير
هذا الذي من اجل تقرير المصير
لا .. لن يعود يدب مثل الخنفساء
ليدوسه النمل الحقير ..

أليست المنبرية والخطابة والمباشرة وكل المآخذ التي يأخذها البعض على القصيدة العمودية ، وهذا لايجب ان ينسينا قصائد من شعر التفعيلة احتلت مكانة مرموقة .

اذن كيف تكون الحداثة ؟ السؤال القديم الجديد ، استطيع من خلال مناقشته ان اضع التصورات التالية :

الحداثة لا تكون بالضرورة في الخروج على العمود الشعري ، بل ممكنة في اطاره كما هو ممكن في قصيدة التفعيلة ، وبالتالي فان التجديد يمكن ان يمس المفردات والتراكيب اللغوية ، والصور ومضمون القصيدة ، وكل يعود اولا واخيرا الى امكانات الشاعر ، ولكن المشكلة ان نقص الثروة الادبية والثقافية عند بعض الشعراء ، تجعلهم يلجؤون الى اقصر الطرق .

* قصيدة التفعيلة هي احد اشكال الشعر العربي المعاصر ، استمدت شرعيتها من خلال اسماء كثيرة ابدعت فيها ايما ابداع ولكنها ليست الشكل الوحيد ، ولا تلغي العمود الشعري ، بل التعايش بينهما ممكن بل ضروري .

* ان مرور الشاعر بمرحلة القصيدة العمودية امر ضروري قبل الانتقال الى كتابة قصيدة التفعيلة اواي شكل اخر ، ومن لا يكتب القصيدة العمودية الجيدة ، لا يمكنه كتابة قصيدة التفعيلة الجيدة

المراجع :

١ - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي د . يوسف خليف ، دار المعارف بمصر .
٢ - " شرح المعلقات السبع "الزوزني" تقديم ظافر كوجان - دمشق ١٩٦٩ .
٣ - الاسلام والشعر " د . سامي مكي العاني - سلسلة عالم المعرفة - الكويت ١٩٨٣
٤ - امراء الشعر العربي في العصر العباسي " أنيس المقدسي - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٧
٥ - " في الادب الاندلسي " د . جودت الركابي - دار المعارف بمصر ١٩٦٦
٦ - " الموشحات الاندلسية " د . محمد زكريا عناني ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ١٩٨٠ .

الرّهينة

قصة: كريستيان كوتار

ترجمة: عز الدين دهان

* ولد كريستيان كوتار في باريس عام ١٩٥٣، وهو يعمل كمدرس للتربية الرياضية في مدينة " شامبني سرمان " نشرت له العديد من القصص القصيرة، حازت قصة " الرهينة " على جائزة القصة البوليسية القصيرة لعام ١٩٨٦ التي منحها له التلفزيون الفرنسي في نوماندي – المترجم.

تبدأ احداث قصتنا الطريفة الاخاذة بعض الشيء في هذه المدينة التي تشبه الكثير من المدن المرمية على خارطة عالمنا، لاشيء يجدر ذكره يمكن ان يميزها عن مدينة اخرى .. وما سننقل وقائعه يمكن ان يحدث هنا او هناك، مع اختلافات، ربما، ليست ذات أهمية، في المجريات والتفاصيل، لقدحدث هذا في مدينة "مانديغيه" سيارة تحث الخطى وقد بدت معفرة بالتراب كأنها منهوكة القوى كان بداخلها رجل يقودها، لكن يخيل الى الانسان أنها هي التي تقوده .. وهي التي تختار، بالتالي، طريقها، كانت تجتاز نفس الامكنة ثم تعود لتمر بها ثانية، متجاهلة الاشخاص الذين يعبرون آمامها، غير عابئة باشارات واضواء المرور الحمراء، قاطعة مفترقات الطرق بدون توقفه

كنا نرى عيني الرجل وراء المقود، ونراها في المرآة العاكسة، فنقول في أنفسنا، هاتان العينان الساهيتان غائبتان عما يجري حولهما، ولا شك أنهما ذرفتا كثيرا من الدمع، لا بد ان هذا الرجل الجالس هنا قاد سيارته فترة طويلة من الزمن، لعله سار بها الليل بأكمله، بل ربما كان يقودها منذ اليوم السابق.

كان رأسه يبدو كأن أحدا دعكه كما يدعك جريدة قديمة، ثم أسلمه الى الطريق، كان الجزء الاسفل من عينيه محاطا بهالتين سوداوين، في حين بدت شفتاه مزمومتين كأن احداهما لحمت بالاخرى، وكانت عضلات فكيه تزداد تقلصا بين الفينة والفينة وهو يكبح جيشانا عنيفا يعتريه، عندئذ كان يمر بيده اليسرى على وجهه كله، كما يمر الانسان

بيده على سبورة يريد محوها ، بانتظار ذلك كان يلقي نظرة على المرآة العاكسة . الا ان تجاعيد وجهه بقيت ثابتة لا تتغير.

أدخل يده في منفضة السكاير واخرج عقب سيكارة لا بأس به .. أشعله وتركه في الزاوية اليسرى لشفتيه .. مستنشقا نفسا عميقا ، ومالبثت دمعة من عينيه اليمنى ان انسابت على امتداد أنفه واطفأت السيكارة لم ينتبه الى ذلك متشبثا بذلك العقب ، مثل تشبثه بمقود السيارة في ذلك الصباح الباكر .. وسيارته تقطع المسافات الى مكان غير محدد .

لم يلاحظ في الحال ان سيارته كانت تتابع سيارة اخرى منذ فترة من الزمن . وخلال بضعة شوارع ، لكن ابتسامة الطفل القابع في المؤخرة هي التي جذبت انظاره ، بدا له ذلك الطفل على شكل ابتسامة جذلى ، حتى خيل اليه ان تلك الابتسامة انما كانت تتفصحه وتنظر اليه .. كان هذا الرجل الجالس في سيارته ، وفي الحالة التي هو فيها ، أبعد ما يكون عن فكرة الابتسامة ، وكان من الطبيعي الا يلحظ اي شيء . والواقع انه لم يعد بوسعه الاهتمام بشيء خارج عن دائرة الشقاء التي تحاصره .. بل ان هذا الرجل كان الشقاء بعينه .

هذه الابتسامة وهذا الشقاء، كان أحدهما يتابع الاخر في ذلك الصباح الوليد في هذه المدينة ، كان كل شيء ،أو كل شيء تقريبا ، يجعلهما متعارضين متناقضين ، وكان الرباط الوحيد الذي يجمع بينهما هو هذه السيارة التي تتخذ قرارها بصورة غير متوقعة ، بعد برهة طويلة من الزمن صادفت عينا الرجل المبللتان ، تلك الابتسامة .. وتحقق وهو ينظر في المرآة العاكسة من ان تلك الابتسامة موجهة له .. له هو بالذات ، عندئذ انفرجت شفتاه وأفلتتا عقب السيكارة الذي كان يعتقد انه ما يزال مشتعلا، فسقط العقب على ركبتيه .. وبحركة مذعورة مرتبكة نهض من مقعده فاصطدم رأسه بسقف السيارة بعنف ،

ثم عاد الى الجلوس بحنق و دس يده اليسرى تحت اليتيه واخرجهما ثانية وهويمسك بعقب السيكارة بين ابهامه وسبابته .. ثم لوح به باتجاه الطفل بحركة تعبر عن الظفر .

بقي العقب المطفأ بين أصابعه برهة من الزمن ، ثم ما لبث ان دفع به الى الشارع وراح يجفف جبهته كشخص تجنب خطرا جسيما منذ هنيهات . أما الصبي الرائع على المقعد الخلفي في السيارة فقد راح يقلد سمات الخوف التي بدت على الرجل قبل لحظات ، كان يماثله حركة بحركة . ثم أخرج يده من نافذة السيارة كأنه يلقي بشيء ما الى الخارج. بل أنه بالغ في تقطيب جبينه جاعلا عينيه تنقلبان كأنهما كرتان كبيرتان .

ابتسم الرجل لتلك الايماءة الاخيرة ، ورد عليه الطفل بابتسامة أخاذة وهو يفرك رأسه كأنه صدم ايضا بسقف السيارة ، ثم تظاهر بأنه أغمي عليه واختفى خلف ظهر المقعد وعاد الى الظهور بعد قليل وقد أبرز محفظته على شكل علبة سكاير . عندئذ تظاهر الرجل ايضا بالاختباء تحت مقود سيارته وبرز ثانية وعلى رأسه علبة سكاير فانفرجت اسارير الطفل بضحكة

كبيرة ، كانت ضحكة من الشدة بحيث ان الرجل استطاع سماع قهقهتها ، وطفق الاثنان يختفيان ثم يظهر كل منهما بدوره وقد وضع على رأسه شيئا مختلفا في كل مرة .

تابع كلاهما اللعبة خلال فترة طويلة دون ان يتنبه اليهما ثالث .. ثم انتهى الامر بالسيارة التي يوجد فيها الطفل الى الوقوف بمحاذاة الرصيف .. وفي الحال توقفت سيارة الرجل واصطفت وراءها تماما ، وبقي الاثنان هناك وكل منهما ينظر الى الاخر ويبتسم ويقطب ملامح وجهه ليجتذب رفيقه .

ترجلت من السيارة الاولى امرأة فارغة القوام ، فائقة الجمال ، بدت على عجلة من أمرها وقد دارت حول سيارتهما وكأنها غائبة عما يجري حولها ، دون ان يلقي نظرة على الرجل الذي أشاح بوجهه ثم قصدت فرن خبز قريب ، في حين عاد الطفل والرجل الى الالتقاء ثانية وهما سعيدان لبقائهما وحدهما وجهها لوجه ، لا يفصل بينهما الا لوحان من الزجاج وكل منهما ينتظر من الاخر شيئا لا يعرف ماهيته بالتحديد .. بقيا جامدين يتراقبان ... كأنهما حائران بسبب هذا السكون الذي يقرب بينهما ويباعدهما في الوقت نفسه ..

لم يجسر لا هذا ولا ذاك على الاخلال بالتوازن الواهي للغاية الموجودين هاتين الابتسامتين ، وبين هاتين الدمعتين وهذين النظرين .. هذا التوازن الذي يلائمهما كل الملائمة .. ثم فتح الطفل دفعة واحدة الباب الخلفية لسيارته ونزل منها ..

اقترب من سيارة الرجل ، فبقي هذا ينظر باستقامة الى الامام ، كأنه يخشى الامر الذي يوشك على الوقوع .. لكن الاوان كان قد فات منذ ذلك الحين .

ما كاد الطفل يصل الى مستوى الباب الامامية اليمنى لسيارة الرجل ، حتى توقف وانطلق ثانية يركض باتجاه سيارته فالقى الرجل نظرة قصيرة على الطفل وكانت نظرته الضائعة تماثل نظرة شخص سلب منه كل شيء .. أدخل الطفل جسمه في السيارة وخرج منها ثانية وهو يحمل محفظته وعاد نحو الرجل . وعندما صار بقربه قال :

ـ أوشكت ان أنسى محفظتي .

عندئذ أخذ مكانا له في سيارة الرجل ووضع محفظته على ارضية السيارة وقدميه على لوحة القيادة وقال :

ـ حسنا ماذا تنتظر ؟ انطلق ..

وبدون ان يجيب انتقل الرجل الى السرعة الاولى ووثب بسيارته فصرخ الطفل :

ـ هيه ، لا بمثل هذه السرعة ، ليس الوقت مناسبا لوقوع حادث ، سر بهدوء وروية ولا داعي للعجلة الان .

وعندما خفف الرجل من سرعة سيارته قال الطفل :

ـ هكذا ، أليس هذا أفضل ؟

وهكذا سار الثلاثة ، السيارة ، والرجل ، والطفل ، فترة طويلة بتلك الشاكلة ، في تلك المدينة التي بدأت تستيقظ ، وهما لا يتبادلان الكلام

بعد فترة طويلة سأله الطفل :

ـ هل لديك نقود ؟

فقال الرجل :

ـ نعم .. دفتر " شيكات " ..

ـ هل ليست نقودا .. سيتحتم عليك العثور على بنك لصرفها .. أليس كذلك ؟ ..

بعد فترة وجيزة توقفت السيارة في ركن احد الشوراع ، قرب موزعة آلية للاوراق النقدية ، نزل الرجل وتقدم نحو كوة التوزيع ، ثم

عاد قائلا :
- خذها انت ، فأنا لا أستطيع العد عندما تكون هناك نقود كثيرة ..
وعاد يسأل الطفل :
- هل تستطيع أنت أن تتولى هذه المسؤولية ؟
- ان العد صعب حتى رقم المائة .. وما يلي ذلك يكون نفسه تقريبا كما أعلم ..
- وهل يوجد فيها أكثر من مائة
- نعم .. اكثر من ذلك بكثير ..
- اذن سيكفينا هذا المبلغ ..هيا تحرك أيها الصبي ..
انطلقت السيارة ثانية ببطء.. .
وبعد ان اجتازت بضع شوارع سأل الرجل الطفل :
- الى أين نذهب ، هكذا ؟
فأجاب الطفل :
- هل تناولت فطورك ؟
- نعم ..كلا .. لم أعد أتذكر تماما ..
- لقد تناولت فطوري ، أما أنت فيبدو عليك أنك بحاجة الى قهوة !. هل نتوقف ؟
عندئذ قاد الرجل سيارته الى مرآب قريب أمام " بار " في ضواحي المدينة .. أو شيء من

هذا القبيل ..
سأله الطفل :
- هل أستطيع تناول " الشيكولاته " مرة أخرى ، مع شرائح خبز مطلية بالزبدة بطول خشبات التزلج .؟
- اذا كان يروق لك ذلك .
- مع مربى توت يوناني .
- اذا أردت .
- اذن سوف يتحقق لي كل ما أطلب ؟

- نعم .
- حسنا سأطلب " جامايكا " مع شرائح الخبز .
- لك ما تشاء ..
دخلا " البار " وأخذا مكانهما أمام طاولة ممدودة ملاصقة لزجاج النافذة ، ، وجلسا وجها لوجه .. كانت ياقة السترة التي يرتديها الرجل مرفوعة ، وقد أخذ وجهه بين يديه وراح يدعك عينيه ، بينما كان الطفل يرسم باصبعه أشكالا على زجاج النافذة المضمخ بالبخار اقتربت النادلة منهما ، فقال الطفل دون أن يستعيد انفاسه :
- بالنسبة لي شراب " جامايكا " فيه قرص ليمون حامض مع شرائح خبز تطاول خشبات التزلج ، مطلية بالزبدة وبمربى التوت اليوناني، وبالنسبة له فنجان من القهوة السوداء المكثفة ..
أوف .. قالت النادلة مبتسمة :
- هو على الاقل يعرف ما يريد .
قال الرجل :
- هكذا يبدو عليه .
ثم وضع يده على رأس الطفل وقال له :
- والان ؟
- الان ماذا ؟
- ماذا سيحل بنا ؟
- سنبدأ منذ الان بتغيير اسمينا ، لأن ذلك يبدو لي ضروريا ، فعندما تحدث قصة لاي شخص كان ، فانه يجب التثبت اولا من اسمه قبل اي شيء آخر..
وعاد الطفل يسأل باهتمام :
- اي اسم تود ان يطلق عليك منذ الان ؟
- أنا .. أدعى ميشيل .

- هل هذا الاسم يروق لك ؟ اذا لم يكن يروق لك فبوسعك اتخاذ اسم

آخر .. بالنسبة لي استعذب ان اسميك دافيد ، هل هذا يروق لك ؟
- دافيد ، لا بأس .
وعاد الطفل يسأل :
- هذا حسن بالنسبة لك ، اتفقنا على دافيد .. وبالنسبة لي ؟
- لا أدري ، ما قولك بريمي ؟
- ريمي .. حسنا ..
وهكذا انتهى هذان الاثنان : دافيد العجوز وريمي الفتى ، من تناول فطورهما في هذه المدينة التي بدأ سكانها يرتدون ملابسهم الان .
بعد فترة قصيرة صمت قصيرة سأل العجوز دافيد الفتى ريمي :
- والان ، ماذا نفعل ، بعد هذا ؟
- كيف ماذا نفعل ؟
- نعم ، أقصد أين سنذهب ، نحن الاثنان ؟
- اسمع ، أنا لا أعرف شيئا عن ذلك ، بل لا اعرف عما اذا كان وجودنا معا امر محمود العواقب .
- لا تعرف عما اذا كان امرا محمود العواقب ؟ لكن ألست أنت الذي جئت لمرافقتي قبل فترة وجيزة ؟ اذن ؟
- لعله كان من المستحسن الا افعل ذلك .؟
- ويدك .. فلم يمض على تعارفنا الا بضع دقائق، وقد بدأت تلقي على نفسك مثل هذه الاسئلة اليائسة انها بداية سيئة..
عندئذ التقط الطفل شرائح الخبز الموضوعة على المائدة ، ونهض ثم خرج من " البار " راكضا ، ثم تبعه دافيد ولحق به في الخارج وبقيا واقفين ، احدهما وراء الاخر .. ريمي يدير ظهره الى دافيد ..
قال دافيد :
- هيا ، لا تلتفت الي ما قلت ..
فقال ريمي ، دون ان يلتفت الى الوراء :
- وشراب " الجامايكا العائد لي؟
اقترب الاخر ، من الطفل وناوله من فوق كتفه زجاجة الشراب ، .. فأخذها الطفل وشرب جرعة ثم بصقها ثانية وهو يقول :
- تبا لها .. يصعب ابتلاعها في الصباح .
أجاب دافيد :
- في الصباح وفي جميع الاوقات ..
فقال ريمي :
- أترى ، تستطيع ان تكون فكها ومقنعا عندما تريد ذلك، بل ان ملامحك تبدو مناسبة ومقنعة لما سنسعى اليه ، ولعل هذا هو السبب المباشر الذي جعل اختياري يقع عليك .. لا تخيب ظني ..
عادا الى السيارة ، وعندما أخذا مكانهما فيها ثانية سأل دافيد ريمي :
- ماذا تريد مني ؟ .. وبالتحديد ما هو المطلوب مني ومن مؤهلاتي التي تحدثت عنها ؟ وبأي مجال يمكنك توظيفها ؟
- لا شيء يذكر في الوقت الحاضر ، ما عليك الا ان تواصل قيادة سيارتك بعيدا عن تلك المدينة بالقدر الذي تستطيع .. هذا هو المطلوب منك .. تحديدا ، الان .. الان على الاقل ..
كان دافيد ما يزال يدقق في عبارات ريمي دون ان يستطيع فك مغاليقها .. لكنه لم يملك الا ان يعلق قائلا :
- يبدو عليك انك داهية وانك تعرف اشياء كثيرة .
- هيه .. هيه .. انني أعرف فقط ما اريد .
- ولا تحب العجلة في الامور ، من الممكن ان يحدث بعض الانسجام بيننا ، رغم أننا في مواقف متصادمة اساسا ، فانا لا اعرف

متصادمة اساسا ، فانا لا اعرف شيئا عن اي شيء ، ولا ارغب الا في ان ارى نهاية لمايمكن ان نسعى اليه .. ان ينتهي كل شيء ويكون محمود العاقبة .
– واذا كنت موجودا معك لنبدأ كل شيء من جديد ؟
– سيكون الامر ، ربما ، في غاية الصعوبة ..
– سنحاول ، سنحاول ، حسنا الى أين سنذهب الان ؟
– لا اعرف ..
– لا تعرف ، لا تعرف ، ليس هذا جوابا ، لا يبدو عليك انك تدرك موقفنا ، كانت أمي ترافقني الى المدرسة ، وقد توقفت للتسوق فجئت واختطفتني .. هذا هو موقفنا .
– أنا اختطفتك ؟
– ومن غيرك ، هل لديك شريك ؟ انها سيارتك.. أليس كذلك ؟
– نعم ، ولكن ..
– وماذا بعد ؟ .. هذا تماما ما كنت اقوله لك .. لقد اختطفتني .. وأنا الان لديك بحكم الرهينة ..او هذا هو حالي تحديدا ..
– لكنك انت الذي ... من تلقاء نفسك.. ثم أنك لست مجبرا على البقاء معي دقيقة واحدة .
– هذا صحيح .. وهذا ما تقوله انت، لكن كيف تفسر لهم ذلك ؟ كنت ذاهبا الى مدرستي ثم صعدت من تلقاء نفسي في سيارة شخص لا اعرفه ؟ هذه حبكة لا يمكن استساغتها ، او تصديقها ..
– لكن هذه هي الحقيقة ..
– حسنا ، قل لهم اذن هذه الحقيقة وفيتقديري ... نصيبك في ان تعثر على من يصدقك ، ضئيل جدا ..
قال دافيد :
– اجل ، لن يصدقوا ذلكابدا ..
فقال ريمي :
– هذا ما اقولهانا .. والان ماذا سنحقق ؟
قال دافيد :
– لا اعرف
– حسنا .. سأكون انا اذن الذي يقرر ، سنذهب الى البحر ، كان هناك احد اقاربنا ، وكنا نزوره ، بصحبة والدي قبل ان يتوفى ..لاشك انناسنجد بيته وسنستطيع قضاء ليلتنا هناك . بعدها سنتدبر امرنا ..
– وهل سيحالفنا الحظ ونعثر عليه
– ليست هذه هي العقبة الكأداء ..
ما ينبغي ان نفكر به هو ان يحالفا ما ينبغي ان نفكر به هوان يحالفنا الحظ في خطوتنا التالية
– خطوتنا التالية ؟ .. لا أفهمما تقصد ..
قال ريمي بثقة :
– يجب انيكون هناك خطوة تالية ،، كلالامور يكون لهاخطوة تالية .
ومع ان العجوز دافيد لم يفهم مضامين ما قاله ريمي ، الا انه ظل يقود السيارة الى الامام مخترقا ضاحية صغيرة كان أهلها قد بدأوا يذهبون الى أعمالهم .. لقد سارا النهار بأكمله .. لم يتوقفا الا للتزود بالوقود .. ومرة واحدة لتناول الطعام وخلال الرحلة تحدثا عن الحياةكما كانت في السابق ، اي قبل ان يتعارفا واجتازا مناظر طبيعية ساحرة لم يستمتعا بسحرها لانهما كانا مشغولين بنفسيهما ..
لقدتعلما ان يتحابا .. ايانيعيد كل منهما الى الاخر مجرد حب تذوق طعم الوجود ، ثم خيم الليل وهما يسيران وسط خط مستقيم ، طويل ، لم يعد بوسع الانسان رؤية نهاية ذلكالخط ، على الرغم من انهما كانا يتقدمان باستمرار ،

كان يلفهما ظلام عميق لا يسبر غوره ، وكان الظلام يحاصر السيارة من كل الجوانب ، وهو ما دفع ريمي الى اشعال الضوء الذي يتوسط سقف السيارة ، عندئذ غرقت السيارة من الداخل في غيمات حلزونية من الدخان الازرق المنبعث من سيكاير العجوز دافيد ، ولم يكونا يسمعان اي صوت عدا ازيز المطاط المنزلق على الاسفلت .. كأنهما في سفينة فضائية ..

كان ريمي يتحقق بين حين وآخر من اشتعال المحركات النفاثة بالاتصال بالراديو مع مجرات الخرى .. او هكذا كان يبدو . . كانا لا يقهران وكأنهما قد تركا الف سنة وراءهما ومائة الف سنة امامهما .. والحقيقة ان الخط المستقيم لم يدم الاستة كيلو مترات .. واذا كان السير قد جرى بسرعة ١٦٠كلم في الساعة ، فهذا يعني أنهما نعما بدقيقتين من دقائق الخلود .. وهذا امر لابئس له واحسن من لاشيء ..

انتهى الخط المستقيم في مدخل احدى القرى الصغيرة وكان هناك منعطف برز فجأة بعد البيوت الاولى من القرية ، وفجأة بهرت بصر دافيد اضواء منبعثة من مصابيح دوارة ، كانوا موجودين هناك وعددهم يقارب خمسة عشر رجلا وهم مسلحون حتى قبعاتهم العسكرية كانوا قد وضعوا على الارض امشاطا مسننة لاجبار السيارات على التوقف ، نهض دافيد وقدمه تشد مكبح التوقف بقوة بعد ان رفع قدمه عن مكبح الوقود .. اما ذراعه اليمني فقد كانت ممدودة امام جسم ريمي ليحول بينه وبين الاصطدام بالزجاج الامامي للسيارة . انزلقت السيارة بصورة مثيرة تماما وعجلاتها المطاطية تعوي كأنها توشك ان تنفجر ، وعلى الرغم من حذر دافيد الشديد فقد وصلت السيارة الى الامشاط الفاغرة الافواه والتي غرزت اسنانها الحادة في مطاط العجلات ، ثم توقف هدير السيارة تماما وسط جيشان كبير من الضوضاء في الخارج ، وثب العجوز دافيد من مقعده خارج سيارته يفترسه الخوف والاضطراب ، وصرخ بهم :

ـ ايها الاغبياء .. كان من الممكن ان تقتلوه .. كان من الممكن ان تقتلوه ..

كان ما يزال يصرخ عندما هاجمه اربعة منهم وهم يكيلون له السباب والشتائم البذيئة وقد شلو حركته وهم يمددونه على الارض وذراعاه مشبكتان خلف ظهره ، كان وجهه غاطسا في العشب المبلل ، وهناك زوج من الاحذية العسكرية يضغط على مؤخرة رقبته ، وكان اثنان منهم يوجهان الى ظهره ضربات من اخمص البندقية لحمله على السكوت ، وقد هدأ كل شيء ، وهو يطلق حشرجة مع شعوره بطعم الدم في فمه .

استطاع مع ذلك ان يلمح شبح ريمي عندما كانوا يقتادونه نحو السيارة وهم يقولون له :

ـ هدئ روعك ، لقد انتهى كل شيء ، لم يعدما تخشاه الان . ولن يستطيع هذا النذل بعد الان اصابتك بأذى .. لم تعد رهينته الثمينة ..

وسمع بوضوح صوت ريمي المرتجف يقول لهم :

ـ لكن .. انه .. أنا .. لا .. لم

ثم لم يعد العجوز يشعر بشيء مما يدور حوله .. واعتقد انه فقد صوابه في لحظة غير مناسبة .

الثأر المقدس

شعر زكي قنصل

وقفت على حب الديار فؤادي / فقلبي بواد و العذول بواد
تضاحك مني واستخف بغصتي / وشوه بالغمز الخفي رشادي
يقول : تمتع بالصبابة والهوى / فكل شباب صائر لنفاد
غدا يتعرى الروض من كل فتنة / ويطرق مياد ويسكت شاد
اذا أنت لم تشبع وترو على الثرى / فزادك في اخراك اعجف زاد
اذا أنت لم تنهب من العمر فرصة / لقلبك ، لم تظفر بغير رماد
اذا أنت لم تطلق جناحك في الهوى / فعقلك مغلول وجهلك باد
ستبكي ، ولكن حين لاينفع البكا / وتكسى على ما فات ثوب حداد
حنانيك يا قاسي اللسان فانما / مرادك في دنياك غير مرادي
كلانا شج ، لكن روحي تمردت / على الحسن لم أسلم اليه قيادي
يهز الربيع الطلق كامن صبوتي / ويسبي هديل الساجعات فؤادي
وتطربني في سامر الحي ضجة / تلوك من الاخبار كل معاد
وتسحرني فدوى برائع شعرها / وتسكر أسماعي بصوت نهاد
وتملأ "غلوائي" خيالي ومهجتي / وتشغلني في يقظتي ورقادي
ولكنني انسى المباهج كلها / اذا نهشت ناب الخطوب بلادي

وكيف تسوغ الطيبات بشاعر ... وسادته من عوسج وقتاد
يرى أهله في محنة اثر محنة ... يعيث بهم عات ويعبث عاذ
تشردهم في النائبات حواضر ... وتأكلهم في الكارثات بواد
فيلذعه جرح وتكويه حسرة ... على طارف من مجدهم وتلاد
غزاهم عبيد السوط يحمي ظهورهم ... جراد من الاعوان خلف جراد
وتحرسهم في البر والبحر والسما ... روائح بالموت الزؤام غواد
اعدوا ليوم الهول نار جهنم ... وحاربهم قومي بغير عتاد
فدارت على الحق الدوائر وانحنى ... جبين العلى للباطل المتمادي
وهلل للنصر الهجين زعانف ... يضيق بهم ناد ويبرم ناد
أراد لهم "بلفور" داراودولة ... يرف لواها في ربى ووهاد
فأقطعهم مهد المسيح هدية ... كما تهب المحتاج كسرة زاد
فبالسخاء يحمد البخل عنده ... وبالزنيم في ثياب جواد

ويا وطني ما هدت الطود زعزع ... فماذا اذا جارت عليك عواد
كبونا ولكن ما كبت عزماتنا ... ولا مات نور في الجوانح هاد
كبونا ولكن لم نعفر جباهنا ... ولم تتزعزع في النفوس مبادي
كبونا ولكن لن ننام على الاذى ... كبونا .. أتزري كبوة بجواد ؟
غدا تتنادى للعظائم أمتي ... ويدعو الى الثأر المقدس حاد
وترقى سماء القدس راية يعرب ... ويضحك منكوب وينقع صاد
سنقسو .. ولكن لا تلمنا جهينة ... فاظلم منا يا جهينة بادي

زكي قنصل

مدارس المستقبل
التربية على مشارف القرن الحادي والعشرين
ترجمة: هدى الكيالي

يتطلب تجاوز الازمة الراهنة في ميدان التربية اصلاحات رئيسية، فعلى المدارس ان تفتح ابوابها مدة اطول وان تدفع للمعلمين اجورا افضل وان تستقبل نوعا مغايرا من الطلاب، اي العامل الراشد الذي يشعر بالحاجة لاعادة تأهيله

" حذار، نحن في خطر ان لم تولوا المدارس المزيد من الاهتمام " هذا ما قاله حوالي ثلاثين تقريرا صدرت عن جهات معنية بالتربية ولجان خاصة وافراد مهتمين .

معظم هذه التقارير تؤكد على ضرورة اعداد الطلاب اعدادا افضل لدخول الجامعات . مع ذلك فان ثلاثة ارباع الشبان، في الولايات المتحدة مثلا، لا يتخرجون من الجامعات .

في المستقبل ستكون احدى المسؤوليات الرئيسية للمدارس هي اعداد الطلاب لدخول سوق العمل المتغيرة تغيرا سريعا، وهذا يعني توكيدا اكبر على الحاجة الى التعليم المهني التكنولوجي العالي وهي المسألة التي تجاهلها معظم المصلحين التربويين حتى اليوم

في المستقبل ستكون المدارس، مسؤولية عن اعداد الطلاب القادرين على التكيف والقادرين على الاستجابة بسرعة لمتطلبات التقلبات الجديدة المتغيرة . ففي المستقبل القريب ستتغير مهن العمال تغيرا كبيرا كل فترة تتراوح بين خمس وعشر سنوات . لذا، سيتعين على المدارس ان تؤهل كلا من اليافعين والراشدين، ولسوف يحتاج العمال الراشدون الى اعادة تأهيل كلما ادخلت الصناعة والتكنولوجيا تطويرات احدث على مهنهم واعمالهم، وفي المستقبل كثيرا ما سيتعرض العمال لتغيير اماكن عملهم والانتقال باستمرار من مهنة الى اخرى، ولسوف يحتاجون بصورة دورية الى اعادة تأهيل ذلك ان كل عمل جديد سيكون مختلفا عن العمل السابق .

مدارس المستقبل :

بحلول عام ١٩٩٠ ستكون ساعات العمل الاسبوعية بالنسبة الى معظم البالغين هي ٣٢ ساعة، وسيكون الكثيرون، في وقت فراغهم ذلك، مشغولين باعداد انفسهم لعملهم المقبل . اي ان فترة الدراسة الاسبوعية ستطول بالنسبة الى الطالب كلما قصرت فترة العمل بالنسبة الى الراشد .

وهذا لا يعني ان اليوم الدراسي المعتاد سيكون اطول بالنسبة الى الطلاب وحسب بل ان البناء المدرسي نفسه سيفتح ابوابه مدة اثنتي عشرة ساعة يوميا على الاقل . كما ستتولى المدارس تقديم الخدمات للمجتمع واصحاب الاعمال والطلاب الصغار الذين يرغبون في استخدام مرافق الاستجمام وصالات الالات الحاسبة ومراكز محاكاة الاعمال - المراكز التي تحوي الات حاسبة واشرطة فيديو ومختلف

الادوات اللازمة لخلق جو مطابق لجو العمل

مدارس كثيرة ربما ستظل فاتحة ابوابها اربعا وعشرين ساعة كل يوم ، اذ ستكون مراكز تدريب للبالغين بدءا من الساعة الرابعة بعد الظهر وحتى منتصف الليل ، كما سيقوم بعضها بتأدية خدمات للاعمال التجارية من خلال الاتها الحاسبة ووسائل الاتصال المتوفرة فيها ما بين منتصف الليل والصباح التالي حين يعود الطلاب الصغار اليها من جديد .

وفي بعض المدارس ستفتح صفوف تضم بالغين وطلابا ثانويين معا ، واذا لم ينجح هذا البرنامج لسبب من الاسباب فسيكون بالامكان الفصل بين الفئتين والعمل على نحو مستقل . وفي بعض المجتمعات ربما سيحتل الكبار اجزاء من الابنية المدرسية التي اغلقت من قبل بسبب انخفاض عدد الطلاب المسجلين في المدرسة .

معظم المدارس في الوقت الحاضر تفتح ابوابها حوالي ١٨٠ يوما في السنة ، وقد اوصى عدد من تقارير الاصلاح التعليمي بزيادة هذا الرقم الى ٢١٠ ايام في السنة او ٢٤٠ يوما بحيث تماثل المدارس في الخارج ، غير ان كثيرا من الناس اعترضوا والارصدة المالية لم تتوفر كما ان بعض الطلاب والمعلمين يشعرون انهم لا يملكون الطاقة الذهنية لتحمل سنة دراسية اطول ، زد على ذلك ان العائلات ترغب في ان تكون لديها وقت حر لوضع خطط الصيف . كذلك فان الابنية المدرسية هي بصورة عامة غير مكيفة التكييف الهوائي المناسب .

على الرغم من ذلك فان المدارس في التسعينات القادمة ستزيد باطراد الوقت الذي تكون فيه ابنيتها قيد الخدمة ولسوف تعمل الادخالات التي تتناول التكييف الهوائي فيها وتعديل حجم الصف وبنيته على التلاؤم مع الاغراض الجديدة للبرامج المدرسية .

كذلك سيتسنى لبعض الطلاب فرصة تسريع برامجهم خلال السنة الدراسية كي يتخرجوا ويدخلوا الكلية او سوق العمل على نحو أبكر ، في الوقت ذاته قد يلتحق البعض الاخر بالمدرسة صيفا لاغناء معارفهم الاكاديمية من خلال دورات تعتمد وسائل الاتصال البعيد مع منطقة مدرسية او ولاية او بلاد اخرى .

وقد يجد الراشدون الكبار اشهر الصيف وقتا مناسبا للتدرب على طور جديد من اطوار حياتهم المهنية ، ولسوف تطول السنة الدراسية الاساسية حتى تبلغ ٢١٠ يوم غير ان الطلاب لن يتعين عليهم بالضرورة ان يتواجدوا في البناء المدرسي طيلة الايام الدراسية لهذه الفترة .

وداعا ، يا بناء المدرسة الاحمر الصغير

لعل التلفزيون السلكي وحلقات ربط الكمبيوتر الواصلة بين البيت والمدرسة ستتيح في المستقبل امكانية اغلاق الابنية المدرسية القديمة المكلفة حتى وان كان عدد المسجلين فيها في تزايد ، فمع تناقص ساعات العمل الاسبوعية من ٣٢ ساعة عام ١٩٩٠ الى ٢٠ ــ ٢٥ ساعة عام ٢٠٠٠ ، سترغب الاسرة في ان تضع خططا للفترات الزمنية التي كان الاطفال سابقا يقضونها في المدرسة . وسيكون باستطاعة الطلاب ان يوقتوا ساعاتهم الدراسية بحيث تتلاءم مع خطط اسرهم .

كما سيستخدم الكمبيوتر لممارسة المهارات التي يقدمها المعلم والتدرب عليها ، ولسوف يستخدم ايضا لمساعدة الطلاب في اكتشاف حالات ابداعية وحلول للمسائل . غير ان الوسائل التعليمية المعروفة اليوم قلما تقضي اي عمل على اكمل وجه .

لذلك سيجري المعلمون بعضا من اكبر التغييرات في الوسائل التعليمية ، خبرتهم في أجهزة الكمبيوتر في الصفوف المدرسية خلال السنوات الاخيرة من الثمانينات ، ستوفر لهم نفاذ بصيرة في الاساليب التي ستحتاجها وسائل كهذه كي تتغير ، ولسوف يكون المعلمون جيدين على نحو خاص في اجراء تعديلات تمكن الطلاب حتى من ترك غرفة الصف ومباشرة اعمالهم الكتابية بوسائلهم الخاصة .

العوامل المؤثرة في مستقبل المدارس :

ثمة عدد من الاتجاهات الراهنة سيؤثر في العمل والمدارس في القرن الحادي والعشرين :

- أفراد الاقليات سيصبحون هم الاكثرية في معظم المدارس الابتدائية في المناطق المدرسية ذات الحجم الكبير والمتوسط في البلاد .
- ستكون أجهزة الكمبيوتر متوفرة للطلاب في المناطق الموسرة بمعدل واحد الى اربعة (انفقت الولايات المتحدة ما مجموعه بليون دولار على الكتب المدرسية

في تاريخها كله البالغ ٢٠٠ سنة ، لكنها ستنفق خلال السنوات الخمس او الست التالية وحدها مبلغ بليون دولار على التعليم بواسطة الكمبيوتر ، ثلث هذا المبلغ فقط سيدفع من قبل المدارس ، ولصالح المدارس ، اما الثلثان الباقيان فسيدفعهما الاباء الاغنياء لشراء اجهزة لابنائهم ، وبذلك يخلقون نوعا من التفاوت في التعليم اشد خطورة من التمييز العنصري الفعلي . وسيتوجب على المجتمع ان يفعل شيئا لتيسير سبل الوصول الى الكمبيوتر لجميع الاطفال .

- سوف تغطى مخصصات الدولة المالية جزءا هاما من التمويل المالي الخاص بالتدريب على الاعمال وتوفير المعدات (بما في ذلك اجهزة الكمبيوتر) في المدارس الفقيرة .

- الاستخدام الاجمالي سيرتفع من ١٧٪ الى ٢٥٪ مع انخفاض ساعات العمل الاسبوعية الى ٣٢ ساعة بحلول عام ١٩٩٠ والى ٢٠ - ٢٥ ساعة بحلول عام ٢٠٠٠

- سوف تدخل المرأة ، وفيما المرأة المتزوجة ، ميدان العمل بمعدل اسرع من اية فئة اخرى من فئات السكان .

- سيشتمل العمل في المدارس على مهن جديدة اخرى ، بما في ذلك التدريب على الحرف الصناعية .

- سيصبح المواطنون المتقدمون في السن (اكثر من ٥٥ سنة) وعلى نحو متزايد طلابا في المدارس العامة وفي برامج تأهيل للاعمال والبرامج ذات المنشأ الاجتماعي .

- سيقدم في المدارس الابتدائية والثانوية برنامج اساسي مدته تسعة اشهر ناقلا بذلك الموضوعات الاختيارية الى اوقات لاحقة من الايام الطويلة والدورات الصيفية

- سترفع رواتب المعلمين السنوية بحيث تعادل رواتب اصحاب المهن الاخرى التي تتطلب شهادات جامعية وضمن حدود ١٠٪ ، فقط .

التخطيط لتعليم ذي صفة فردية :

كثير من المعلمين سوف يعملون ضمن فرق للتعليم سيكون باستطاعتها ان تستخدم المعلومات المستحدثة من حين الى اخر على طلابها لوضع خطط تعليمية افرادية ، وهذه الخطط هي بكل بساطة خطط للتدريب حيث يكون لكل طالب خطة تتناسب مع خلفيته واهتماماته ومهاراته . الخطط التعليمية الافرادية في مدارس اليوم تدرج في لائحة المهارات في القراءة او الرياضيات ، مثلا ، وتقترح الكيفية التي ينبغي على المعلم ان يختبر الطالب وفقا لها ليرى ان كان الطالب متمكنا من تلك المهارات ام لا .

في المستقبل ستعمل هذه الخطط ايضا على ذكر ما اذا كان ينبغي على الطلاب ان يتعلموا كل مهارة ضمن فئة صغيرة ام كبيرة ، بصورة منفصلة ام واحدا واحدا ام بمزيج من هذه الصيغ ، كما ستقترح الاسلوب الذي يتعين على الطالب ان يستخدمه اكثر لتطوير مهاراته اكثر - مثال على ذلك الاسلوب البصري (كقراءة الكتب او استخدام شاشات الكمبيوتر) اكثر من السمعي (كالاستماع للاشرطة)

وحالما تتحسن وسائل وادوات - التعليم ، سيكون بامكان المدارس ان تعلم وتدرب الطلاب على مهارات اساسية بصورة اكثر كفاءة وفعالية كما تزيد نسبة الطلاب الذين يتقنون بعض كفاءات الحد الادنى .

اما الطلاب الذين يعملون على نحو حسن نسبيا دونما حاجة لقدر كبير من الاشراف فسيعهد بهم الى معلمين يحسنون العمل مع الفئات الكبيرة . وفي الغالب ستقدم الدروس وتطور المهارات من خلال اجهزة الكمبيوتر العاملة باشراف المعلم . كما ان المعلمين سيكونون مسؤولين عن وضع المخططات التعليمية ومراجعة ما تم انجازه مع الطلاب والتأكد من انه يتوفر للطلاب فرصة المشاركة في نطاق واسع من وضعيات التعلم : زمر حل - المسائل ، النشاطات المستقلة ، جمع المعلومات ، سواء في المدرسة امفي المجتمع ، الانشطة الموسيقية او الفنية او المسرحية التي تعمل تحت اشراف مختصين في هذه الميادين ، او المنظومات التدريبية القائمة على الكمبيوتر .

اما الطلاب الذين يحتاجون للعمل ضمن زمر صغيرة ، فان المعلمين الماهرين في نقل خبرات الفئات الصغيرة وتنسيقها هم الذين سيعملون على نقل هؤلاء الطلاب من حالة التعامل القائمة على المعلم - الطالب الى حالة الطالب - الطالب . ذلك ان الطلاب سيعلم بعضهم بعضا ليس لان المعلم لا يملك الوقت ويحاول ان يجد طريقة لاشغال فرق الطلاب تلك بل لانه بالامكان ان يتم في فرق كهذه تعليم ناجح وفعال .

كما ان المعلمين سيوزعون على الطلاب بناء على نوع التعليم الذي

يحسنونه ، وسيوزع الطلاب الى فئات بناء على الطريقة التي يحسنون بها التعلم وطبقا لما يشعر باحثو التعلم بانهم يحتاجونه ليكونوا ناجحين . ولن يوزع الطلاب طبقا لمستوى درجاتهم بل طبقا للمستوى التطوري الذي توصلوا اليه في كل ميدان ، كذلك لن يكون المعلمون ولا الاباء معنيين بمعدلات المعلم - التلميذ

لا اقلام رصاص ، لا كتب ؟

مع تحسن وسائل التعليم ، سوف تبدأ اجهزة الكمبيوتر بالحلول محل بعض انواع الكتب ، وبامكانها الان تقريبا ان تحل محل دفاتر التدريب ، ومن الممكن ان تصنع تلك الوسائل بصورة تلبي حاجات كل طالب وان تطور على نحو اسرع واقل تكلفة من الكتاب المدرسي . كما يمكن في الغالب معالجة عيوب الالات الكاتبة والحاسبة التي لاحظتها فئات اصلاح التعليم الوطنية بين طلاب هذه الايام بممارسة بسيطة - شيء ما تفعله اجهزة الكمبيوتر بلا تعب .

بل يمكن لاجهزة الكمبيوتر نفسها ان توفر دخلا للمدرسة ، اذ يغدو بامكان الاباء ان يأتوا الى المدرسة كي يتعلموا كيفية استخدام الحاسبات في اعمالهم ، كما يمكن للشركات ان تستخدم اجهزة المدارس تلك لمعالجة بياناتها ليلا . كذلك يمكن وصل اجهزة الكمبيوتر باجهزة فيديو او بمعدات تماثل ما هو موجود في محيط العمل .

ولسوف توفر اجهزة الكمبيوتر الموصولة باجهزة تلفزيونية الصورة والصوت والحركة . وهكذا يمكن تعليم دروس التاريخ ، اللغة ، السياسة ، علم النفس ، الرياضيات ، مسائل الكلام ، وكذلك الموسيقى ، الفن ، الرقص من شريط تلفزيوني او تعزيز ذلك التعليم . كما ان وسائل التعليم التي يضعها احد افراد فريق التعليم ستبرمج سلاسل الصور المرئية على الشريط . ولسوف يكفل برنامج الكمبيوتر ايقاف الشريط وتشغيله بين حين وحين لمواجهة اسئلة الطلاب .

كذلك لن يكون الاستخدام الواسع النطاق للمعدات المتصلة بالكمبيوتر سمة اساسية للمدارس حتى القرن الحادي والعشرين ، بل ان بعض المدارس ستستخدم اجهزة الكمبيوتر بهذه الطريقة قبل عام ١٩٩٥ بزمن ، وفي بعض الصناعات استخدمت عمليات محاكاة الكمبيوتر لبعض الاجراءات التي تتم في العمل بغية تدريب المستخدمين منذ ١٠ سنوات ، ونظرا لان المعدات الراقية الخاصة بمحاكاة جو العمل تكون غالية ، فمن المحتمل انها لن توضع الا في المراكز الاقليمية حيث يرسل الطلاب لفترات زمنية قصيرة كي يدرسوا ويقيموا في مهاجع تابعة للجهاز المدرسي وتحت اشرافه . وفي النهاية ستشرع المدارس الثانوية المتميزة بتقديم وسائل المحاكاة بوصفها وسيلة من وسائل التدريب على الاعمال .

المعلمون والاعمال المهنية :

قبل منتصف التسعينات ، سيتلقى المعلمون اجورا اعلى - ترفع الى حدود التسعين بالمائة من رواتب المهنيين المماثلين على الاقل . فالمفهوم الشائع حاليا عن الاجر المستحق ليس ذا صلة كبيرة بمفهوم المساواة في الاجور او التكافؤ ، والمعلمون هم ادنى المهنيين جميعا اجرا . ففي اربعين ولاية من اصل خمسين نجد ان عامل نفايات جديدا يكسب مالا اكثر من معلم جديد ، لذلك لا بد من فعل شيء ما في هذا المجال . والتمويل المالي المطلوب لرفع رواتب المعلمين سوف يأتي من الاعمال والمهن ذات العلاقة بالمدارس التي تعيد تأهيل عمالها ، ومن الافراد انفسهم الذين يدرسون المهارات الخاصة باعمالهم القادمة ومن الاموال المتوفرة لقاء السماح باستخدام الكمبيوتر لاوقات محددة والرعاية النهارية والخدمات الخاصة بالشيوخ التي تقدمها هذه المراكز للمجتمع ، وكذلك من طرق الانتفاع الناجعة الاخرى من الابنية المدرسية .

ومع صيرورة الاعمال اوثق صلة بالمدارس ، يمكن ان يلتحق المعلمون المهرة بكل من الاعمال الخاصة وباعداد اكبر حق عما يجري في هذه الايام ، وقد يختار المعلمون مواصلة حياتهم المهنية كمدربين للمستخدمين على الاعمال الخاصة ، لكن في كثير من الاحايين سيجد اصحاب الاعمال إن المعلمين هم مستخدمون بالغو القيمة في مجالات اخرى ولسوف يتضمن بعض الخدمات التي يمكن للمعلمين ان يقدموها لرجال الاعمال ، والمهارات المتعلقة بوسائل الاتصال ، مهارات تقييم الانجاز ، امكانات ادارة ومهارات معالجة المعلومات .

وربما سيتعين على المدارس التي تبتغي الحفاظ على معلميها الاشد مهارة ان تعرض مخططات عمل مرنة بحيث يتمكن المعلمون من المشاركة في كلا العالمين دون ان يضطروا للخيار بينهما وبهذه الطريقة لن تقف المدارس مكتوفة الايدي سامحة للاعمال الاخرى بان تسلبها عناصرها .

طلاب المستقبل :

لعله سيكون من بين طلاب القرن الحادي والعشرين صغار يدرجون اطفال يافعون بالغون واناس كبار السن . اما المجمع المدرسي النموذجي فيمكن ان يوفر خبرات التعلم والتدريب لطلاب تتراوح اعمارهم بين ثلاث سنوات واحدى وعشرين سنة ولبالغين تتراوح اعمارهم بين ٢١ سنة و ٨٠ سنة واكثر .

يمكن للطلاب ان يكون لديهم خيارات كثيرة ضمن اطار العمل اليومي والسنوي الموسع ،

- حضور الدوام المدرسي مدة سبع ساعات يوميا ولمدة ٢١٠ ايام او اكثر سنويا ، وذلك طبقا لحاجات الطالب وقدراته على اداء واجباته .
- اختيار عدد متنوع من البرامج ، المطلوب منها والاختياري على حد سواء وذلك ضمن البرامج المدرسية او المهنية او برامج اغناء المعلومات .
- العمل من مركز تعم[illegible]ل بجهاز كمبيوتر / جهاز تلفزيوني في البيت او المدرسة .
- ممارسة عمل والذهاب الى مدرسة .
- تعلم مهنة على يد اساتذة محترفين .
- اقتناص الفرص التي يتيحها تمديد وقت العمل في مخبر علمي او صف لتعلم الموسيقى او الفن او صف مهني .
- اقتناص الفرص المتاحة للتعلم لسواء بصورة افرادية ام ضمن فئات صغيرة .

جميع الطلاب سيتدربون على الاعمال :

التدريب على العمل لن يمنع الناس من الذهاب الى الجامعة واحد المؤشرات هو انه ما بين ١٩٧٤و ١٩٧٩ازاد عدد المسجلين في كلية ذات دوام جزئي بنسبة ٨ر٢٥٠/٠ ، كما تتزايد الان عدد الطلاب الذين يتأخرون بالالتحاق بالجامعة بعد تخرجهم من المدرسة الثانوية . هذا التأخر ناجم عن حقيقة اساسية هي ان مساعدات الدولة للمدارس والمنح التي تقدمها لطلاب الجامعات قد تناقصت تناقصا شديدا .

كذلك ستكون المدارس ، مع صيرورتها اكثر قدرة على توفير المزيد من الموارد لجهازها التعليمي ، قادرة على تقديم امكانيات التدريب على الاعمال انطلاقا من الاعمال المتوفرة عمليا ، لا تلك التي ستنقرض .

واعتبارا من الصف الثامن وما فوق ، يمكن لكثير من الطلاب ان يوضعوا عمليا في اعمال مختلفة بحيث يستفيدون من المهارات التي يتعلمونها ، واذا لم تكن الاعمال التي يمكنها توفير نطاق واسع من الخبرات متاحة بصورة مباشرة للمدرسة ، فسوف يكون باستطاعة الطلاب ان ينتقلوا الى مركز تعليمي مزود بمدربين ومحتو على احدى المعدات المناسبة لميادين عمل الطلاب .

وفي اي موقع من مواقع التعليم ، سيجد الطلاب ان عملهم يخضع لاشراف ويصنف حسب معايير ارباب العمل ، اذ سيراقبهم مدرب في موقع العمل او عبر شاشة تلفزيونية وسيكون المدرس قادرا على مخاطبة الطالب وتبادل الحديث معه ، بعد هذه التجربة في موقع العمل ، سيعود الطلاب الى المدرسة لالقاء نظرة على ما انجزوه ، بعدئذ تحكم المدرسة فيما اذا كان الطالب بحاجة الى انتباه اضافي او ممارسة في مركز المحاكاة او دراسته .

معلموا المستقبل :

قد لا يكون من الضروري بالنسبة الى الجهاز التعليمي في المدرسة ان يكون كله مدربا على التعليم ،فالمعلمون سيكونون جزءا من فريق العمل وسيكونون قادرين على تقديم الارشاد اللازم للتأكد من ان الخبراء المختصين بميادين اخرى غير التعليم سيقدمون موادهم على نحو مفيد .

ستتوفر لدى معلم المستقبل خبرة واسعة بموضوعات شتى مثل كيمياء تطوير الدماغ ، بدائل الجو التعليمي ، التقييم المعرفي والنفسي والجسدي وكذلك التطوير العاطفي .

وسوف تقسم الوظيفة التربوية الى قسمين :
ذلك انه بعد ان توفر في المدراس وسائل تعليم جدة تعمل بالكمبيوتر ، فان المعلومات التي تتجمع عن اداء المعلمين وانجازهم في مختلف المواقف والحالات هي التي ستحدد نوع العمل الذي سيعهد به للمعلم ، ولسوف يشجع الجهاز المدرسي هذا التخصص نظرا لان افراده سيكسبون المال منجراء تقديم خدمات متنوعة لاصحاب المصالح والاعمال - او يمكن للمعلمين ان يعملوا دواما جزئيا ويحصلوا على المال لقاء خدماتهم ذاتها . فيما يلي نذكر بعض الاعمال الجديدة التي قد تحدث :

- اخصائي بتشخيص التعلم .
- جامع معلومات لبرامج الوسائل التعليمية .
- مدون لوسائل الدورة التعليمية .
- مصمم منهج .
- اخصائي بتشخيص الصحة الذهنية
- مقوم لانجازات التعلم .
- مقوم مهارات اجتماعية .
- مسهل تعلم ضمن فئات صغيرة .
- مسجل تعلم ضمن فئات كبيرة.
- مخرج تدريبات بواسطة وسائل الاعلام .
- مصمم تدريبات منزلية .
- مراقب تدريبات منزلية .

وتخصيص السنتين الاخيرتين من الدراسة الثانوية للاعداد للوظيفة لايعني انه ينبغي غض النظر عن حاجة الطلاب المتوجهين نحو الجامعات الى دورات متقدمة ، مع ذلك ستكون المدارس مضطرة لان تصبح اكثر فعالية في اقامة دورات اللغة ، الرياضيات ، التاريخ والعلوم قبل الصف العاشر ، فالطلاب الذين يخططون لاحتراف مهن تتطلب مهارات متوسطة اومتقدمة في اللغات الاجنبية او العلوم او الرياضيات يمكنهم ان يمارسوا ابان دراستهم لتلك المواضيع وبصورة تجريبية اعمالا وثيقة الصلة بها.

كذلك لن يظل التعليم المهني ميدانا ضيقا لدراسة محددة وبدلا من ان يظل كما كان في الماضي ، العلاج غير الناجح الذي تم سن قوانينه وتمويله بسرعة من اجل اقتصاد منهار ، فان التعليم المهني سيغدو في المستقبل قادرا على اعداد الطلاب لحياة مهنية مليئة بالتحديات والتغيرات وليس من اجل ممارسة عملهم الاول فقط .

كما يمكننا ان نتنبأ بمستقبل متقدم وايجابي اساسا للمدارس عامة ولمدارس امريكا خاصة بناء على التيارات الاجتماعية والاقتصاديات الوطنية وكذلك الاتجاهات الدولية .
لكن يمكن لهذه التيارات ان تغير اتجاهها وبالتالي تغير تكهناتنا .

لكن ما من شيء سيغير هذه التكهنات بقدر ما يغيرها القعود والتبطل ، واذا ما تجاهل الناس هنا هذه التحذيرات المتعلقة بمستقبلهم الصناعي والتعليمي ، فان استقرار البلاد الاقتصادي وتفوقها سيكونان عرضة للخطر .

نسخ رسالة الغفران

بقلم : الياس سعد غالي

القصد من دراستنا : نسخ رسالة الغفران ، وطبعاتها ، وترجماتها ، وتسمية الكوميديا الالهية ، انما هوتحديد لموضوع كل منها ، او العمل على تحديده بصورة جدية وعلمية قدر المستطاع لبيان بعض الحقائق التي لابد من معرفتها ، على وجهها الصحيح ، لمن يرغب في دراسة ما يتعلق ببعض هذه النواحي من الادب العلائي ، ولا سيما رسالة الغفران من جهة ، ومن جهة ثانية للقضاء على خيط بعض الادباء ، وتفاديهم من الوقوع في أخطاء ، هم في غنى عنها ، بالنظر الى مراكزهم الادبية والعلمية ، باذلين قصارى الجهد في هذا السبيل ، ومؤملين التعاون المجدي من كل من يعرف شيئا فاتنا من هذا القبيل ، فيبديه مشكورا ، تحقيقا لهدف وحيد ألا وهو معرفة الحقيقة فقط .

أملى ابو العلاء رسالة حوانية بعث بها الى علي بن منصور الحلبي ، المعروف بابن القارح . واذا ما بحثنا عن هذه الرسالة ونسخها ، وعن مكانها بين آثار ابي العلاء ، وفي الادب عند الاقدمين ، والمحدثين نرى ان منهم من وضعوها بين رسائلة الطول كالقفطي وياقوت وابن العديم (١) ومنهم من ذكر اسمها " رسالة الغفران " مجردا كالقفطي مرة أخرى وياقوت مرتين ايضا والصفدي (٢) ، ومنهم من زاد في تعريفها كسبط بن الجوزي الذي قال : ان لأبي العلاء رسالة الغفران وهي من مصنفاته الحسان ، وقال الذهبي : ان للمعري رسالة الغفران التي احتوت على مزدكة واستخفاف وفيها ادب كثير ، وقال محمد بن عبد الغفور الكلاعي : للمعري من الرسائل التي لها بال رسالة الغفران . وقال يوسف البديعي : ان ابا العلاء كتب رسالة مسماها " رسالة الغفران " وكامل كيلاني قال عند تعريفه برسالة ابي العلا هذه انه اطلق عليها اسم " الغفران لان الفكرة الرئيسية التي دفعته الى انشائها هي مناقشة من فازوا بالمغفرة ومن حرموها في الدار الاخرة وسؤاله الفريق الناجي : بم غفر لك ؟ ، وسؤاله الفريق الثاني الذي حقت عليه اللعنة وكتب عليه الشقاء : لم لا يغفر لك قولك كذا ؟ (٣) وقد عنونت النسخ المطبوعة منها كلها باسم " رسالة الغفران " (٤) . وقد حرصت الدكتورة بنت الشاطىء على اثبات صور نسخ رسالة الغفران المخطوطة الحاملة لهذا العنوان ما بين الصفحتين ١١٢و ١١٣ من

رسالة الغفران التي حققتها وهي التي تشير الى ان كاتبها " الشيخ ابو العلاء المعري " :

١ ـ نسخة كوبريلي زاده
٢ ـ نسخة الشنقيطي
٣ ـ نسخة الاستانة

اما نسخة الاسكندرية فهي لا تحمل عنوانا في الاصل انما كتب العنوان على ورقة متأخرة . غير ان بنت الشاطئ كثيرا ما سمت هذه الرسالة في غفرانها ، وفي الرسالة التي حققتها باسم " الغفران " فحسب ، وكأنها تميل الى القول ان ابا العلاء المعري سماها " الغفران " فقط ، وان الخلف هم الذين صنفوها ، وأطلقوا عليها اسم " رسالة الغفران " وقد اطمأنت ، بعد بحث طويل ودقيق ، الى ان ديوان " الرسائل الفنية الطوال هو المكان الصحيح الذي اختارت وضع " الغفران " فيه (٥) .

الشيء اللافت للانتباه ، ان الدكتورة عائشة عبد الرحمن عنونت اطروحتها هكذا : " الغفران لابي العلاء المعري " ، في صفحة الغلاف ، وكرر هذا العنوان في الصفحتين الاوليين الداخليتين ، وكرر اسم الغفران وحده في الفهرس ٢٣ مرة ، وكرر مرات في مقدمتي رسالة الغفران ايضا (في المقدمة الاولى ١٢مرة وفي المقدمة الثانية ٨ مرات) والاستاذ كامل كيلاني لا يفرق بين " الغفران " و"رسالة الغفران " في كتابه " على هامش الغفران " . أيكون المعري سمى رسالته الى ابن القارح " الغفران فحسب ، ؟

على كل حال لقد اشتهرت هذه الرسالة واجمع الذين كتبوا عن

ابي العلاء وعنها منذ القديم على تسميتها : " رسالة الغفران " في كتبهم ومقالاتهم ، وتكاد لا تعرف الا بهذا الاسم .

اما تاريخ املاء هذه الرسالة فقد اهمله المؤلف واهمل الاقدمون تحديده وليس هذا بمستغرب منهم كما قالت بنت الشاطئ اذ لم تجد فيما كتبوه عن ابي العلاء ، على كثرته ، عناية خاصة برسالة الغفران اواهتماما واضحا بها واكثر ما تجيء في فهرست كتبه وقد يكتفى بذكر اسمها مجردا بين ثبت المؤلفات وهذا هو الغالب . وقد أرجع مصطفى صالح تاريخ تدوينها الى عام ٤١٤ هـ وحسب قول نيكلسون (٨) والى عام ٤٢٤ هـ حسب قول كراتشكوفسكي (٩) ، لكن بنت الشاطئ التي نوهت بقول كامل كيلاني (١٠) الذي ارجع هذا التاريخ هو ايضا الى عام ٤٢٤ هـ قالت ان اقصى ما تستطيع قوله ان رسالة الغفران كانت تملى حوالي عام ٤٢٤ هـ . ورأيها هذا يبدو الاصوب ، وهذه خلاصته :

" يستنتج من قول ابي العلاء في رسالة الغفران : لا يجوز ان يخبر مخبر من مائة سنة ان أمير حلب في سنة ٤٢٤ هـ اسمه فلان ابن فلان وصفته كذا (٤) ، ان هذه العبارة من الرسالة كانت تكتب عام ٤٢٤ هـ وهذا الاستنتاج رجحه قول ابن القارح في رسالته الى ابي العلاء : كيف اشكو من قاتني وعالني نيفا وسبعين سنة " وابن القارح في السبعين ونيف وقد ولد في السنة الاولى بعد منتصف القرن الرابع (٣٥١+ ٧٠ =٤٢١ هـ) ، فعبارته هنا تنص على ان رسالة ابن القارح كتبت بين عامي ٤٢٢ و ٤٢٤ هـ ، حيث يكون عمره نيفا وسبعين سنة (١٢) . وقد استنتج كامل كيلاني تعليقا على هذه

العبارة ان رسالة الغفران كتبت في تلك السنة (١٣) وقد سبقه نيكلسون الى هذا الاستنتاج بنحو نصف قرن من الزمان (١٤) فقال :

" The date of the Risala is fixed at 424 A.H. by the following sentence, which occur in passage denying the possibility of prediction".

ونقل العبارة التي اوردناها آنفا .

وفي رأي بنت الشاطىء ان ابا العلاء املى تلك الفقرة بالذات عام ٤٢٤ هـ بالذات ، ويحتمل ان يكون املى ما قبلها عام ٤٢٣ هـ وما بعدها بعد ذلك العام وأقصى ماتستطيع قوله ان رسالة الغفران كانت تملى حوالي عام ٤٢٤ هـ .

وقالت بنت الشاطىء : اكاد أسمع صوت قارئ متعجبا اومتهكما ساخرا : ياللله اكل هذا العناء من اجل وضع لفظ حوالي ؟ من يدرك؟ حرمة اللفظ سيعرف ان هذا فرق ما بين الدرس العلمي وسواه .

اما فيما يتعلق بنسخ الغفران ونقلها الى الغرب فقد ذهب المؤرخون والباحثون والكتاب في ذلك مذاهب شتى . فمنهم الذين يجزمون لم يثبت لهم حتى اليوم وجود مخطوط عربي لهذه الرسالة في المكتبات الغربية *١، ومنهم الذين يؤيدون ويجزمون بصحة انتقال نسخ من رسالة المعري الى اووروبا منذ القديم ،فالدكتورة بنت الشاطىء مثلا من اجل تحقيق رسالة الغفران ، لأبي العلاء عانت مشقة وكلفة السفر الى تركيا والحجاز والاسكوريال وايطاليا وبريطانيا بحثا عن نسخ رسالته الغفران في حين ان بعض الكتاب يجزمون بكل بساطة وبدون اي برهان بان نسخ تلك الرسالة متوافرة وبكثرة في مكتبات اوروبا وانها ترجمت الى لغاتاجنبية ايضا .

نشركامل كيلاني رأيا لمجلة الهلال عام ١٩٠٧ (١٥) جاء فيه : عثر على رسالة كبيرة تسمى رسالة الغفران .. لم تطبع بعد *٢ ولكن منها نسخا خطية في بعض مكاتب اوروبا الكبرى وفي المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية) صفحاتها نحو ٢٠٠ صفحة ، وقد ذكر في كتابه "على هامش الغفران" ص ١٢٢ انه عني بتحقيق نص رسالة الغفران وضبطه وتحري اصح رواياته في مختلف النسخ ، لكنه لم يقل شيئا مفصلا عن هذه النسخ

واول ذكر جدي لمخطوطات رسالة الغفران ، حسب قول بنت الشاطىء (١٦) ، خطاب بعث به نيكلسون الى رئيس تحرير مجلة الجمعية الاسيوية الملكية ، نشر في عدد يوليو - تموز ١٨٩٩ اكتفى فيه بالاشارة الى مخطوطات عربية ظفر بها اهمها رسالة الغفران ، والى مالك سابق للخطوطة كانت في حوزته وهو : يوسف ابن المرحوم زين الدين المصري الحلبي ، ولم تقف بنت الشاطىء على اثر لهذا الاسم مع بحثها وتحريها . واضافت الدكتورة عائشة عبد الرحمن الى ما سبق قول نيكلسون : من العبث البحث عن رسالة الغفران في فهارس المكتبات الاوروبية " ، وقد اولت بنت الشاطىء نسخة نيكلسون اهتماما كبيرا في مقدمة رسالة الغفران (١٧).

والدكتور مصطفى صالح (١٨) اول من نوه ، فيحد علمنا ، ان عبد الرحيم أحمد قدم امام اعضاء مؤتمر المستشرقين الذي انعقد

في باريس ما بين ٥ و ١٢ ايلول ١٨٩٧ كلمة اشار فيها الى حصوله على مخطوط من رسالة الغفران .
لكن الدكتور صالح اي قبل انعقاد المؤتمر اضاف الى ماتقدم قوله : لم تذكر رسالة الغفران في اوروبا قبل عام ١٨٩٧ ، فلم يذكرها اوزانام في مقالة حول فلسفة دانتي ولا في كتابه : المصادر الشعرية للكوميديا الالهية ، ولا دانكونا ، ولا بلوشية في كتابه : المصادر الشرقية (الفارسية للكوميديا الالهية . ونحن نكتفي هنا بالتنويه بما قاله الدكتور صالح لتعذر الوصول الى اكثر مما ذكر بخصوص مخطوط عبد الرحيم احمد .

لم يلفت الباحثون الانتباه الكافي الى ان ابا القاسم الكلاعي احد وزراء الاندلس في عهد ملوك الطوائف الذي عاش في اواسط القرن السادس الهجري ، كان شاعر واديبا مطلعا ، وانه وضع كتاب " أحكام صناعة الكلام " الذي جاء فيه انه الف كتابا على مثال " السجع السلطاني " لابي العلاء وانه عارض ابا العلاء في رسالة " الصاهل والشاحج " وفي " سقط الزند " بكتاب سماه :"ثمرة الادب " وقد ذكر الكلاعي عددا من مؤلفات المعري وقال قولا هاما يتعلق برسالة الغفران .

لقد سها اكثر الباحثين عن التنبيه والاشارة الى اهمية قول الكلاعي المذكور صراحة في كتاب " تعريف القدماء بابي العلاء " : ان لابي العلاء من الرسائل التي لها بال رسالة الغفران "(١٩) ، مع ان هذا القول يثبت اثباتا قاطعا ان ابا العلاء كان ذائع الصيت في المغرب و ان نسخة على الاقل من رسالة الغفران ذاتها قد وصلت الى الاندلس وتبوأت مكانتها فيها .

ونحن لم نتمكن من معرفة اكثر من ذلك عن هذه النسخة فقد يكون الكلاعي قال شيئا كثيرا عن تاريخ هذه النسخة وعن ناسخها وكيف حصل عليها او انه لم يقل شيئا سوى ما نقل لنا عنه ، وقد اولته بنت الشاطئ اهتماما حتى انها اشارت الى ان جد الكلاعي عاصر ابا العلاء (٢٠) وسبق لقسطاكي الحمصي ان قال في اتهامه دانتي بالاطلاع على رسالة الغفران : قد يكون دانتي اطلع عليها بنصها العربي او مترجمة (٢١) ، لكنه لم يؤيد زعمه هذا بأي برهان علمي .

ومنذ بضع سنين حلت الكاتبة فاتنة شامي عقدة معرفة دانتي للعربية واطلاعه على رسالة الغفران وعقدة ترجمتها الى لغة كان دانتي يجيدها فقررت بكل بساطة وبدون اي دليل ان دانتي الذي عاش في وسط اسلامي كان يجيد اللغة العربية واستطاع ان يحصل على مخطوطات قديمة لرسالة الغفران (٢٢)) ، غير ان الاديبة شامي لم تذكر اين كانت مثل تلك المخطوطات محفوظة وكيف تسنى لدانتي ان يطلع عليها ، في حين ان الاستاذ الجامعي عبد اللطيف الطيباوي (٢٣) قال : "ان دانتي عاش في وسط اسلامي في ثقافته ، اسلامي في تمدنه " ، والفرق بين قول الاديبة شامي ، وقول الاستاذ الطيباوي كبير جدا ، وكلا القولين يحتاج الى كثير من الدراسة والبحث الدقيق ليكون حجة وبرهانا يركن اليه .

اما الحديث اليقيني عن مخطوطات رسالة الغفران فقد

حدثتنا به الدكتورة بنت الشاطئ (٢٤) بعد ان سافرت الى اقطار بعيدة وقضت سنين عديدة في البحث فقالت : ان نسخ رسالة الغفران الاصلية المعروفة موجودة في مكتبات تركيا ، وان كان من المحتمل ان توجد نسخ منها مدفونة في الشرق ككثير سواها ، وعلقت على قول نيكلسون بانه صدق في توقعه اذ عثرت على مخطوطة من رسالة الغفران يرجع تاريخها الى القرن الثاني عشر هجري مدفونة في مكتبة البلدية بسوهاج ، وعلى نسخة اخرى في مكتبة الاسكندرية تحمل رقم ٣٦٦٠

وتعدد بنت الشاطئ النسخ التي تسنى لها الاطلاع عليها :

١ – نسخة كربريلي زاده باستانبول تحمل العنوان التالي : " رسالة الغفران " كتبها الشيخ ابو العلاء المعري . انتهى نسخها في رجب سنة ٦٦٨ هـ وقوبلت على نسخة قام بتصحيحها الشيخ ابو زكريا الخطيب التبريزي تلميذ ابوالعلاء ، وهي تعد ، فوق كونها النسخة الوحيدة الاصلية التي اتصل نسبها بابي العلاء ، او في النسخ حظا من الصحة والضبط ، والاتقان ، ولذا اعتمدتها بنت الشاطئ (رسالة الغفران ص ٧٦ – ٧٨)

٢ – نسخة الشنقيطي تمت كتابتها في سنة ١٣٠٥ هـ راجعها الشيخ محمد محمود الشنقيطي وصححها بقلمه وهي تحمل العنوان التالي :رسالة الغفران كتبها الشيخ ابوالعلاء المعري .

٣ – النسخة التيمورية الناقصة ، تمت كتابتها في ٢٥ ذي الحجة ١٣١١ هـ نقلا عن نسخة الشنقيطي ، وتمت مقابلتها عليها في ٢٤ صفر ١٣١٢هـ .

٤ – نسخة الاستانة منقولة عن اقدم نسخة معروفة من الغفران لم يتصل سندها بابي العلاء وليس على صفحاتها اشارات الى مالكين او مراجعين قرأووها او قابلوها على نسخة اخرى. نسخها اسماعيل شاكر عام ١٣١١ هـ عن نسخة بالاستانة مكتوبة عام ٦٢٠ هـ ، تحمل هذا العنوان : " رسالة الغفران كتبها ابو العلاء المعري .

٥ – النسخة التيمورية الكاملة لم يذكر تاريخ نسخها ويظن انها كتبت في اواخر القرن الثالث عشر الهجري .

٦ – نسخة مكتبة سوهاج ، مجهولة الاسم واسم المؤلف واسم النسخة التي نقل عنها وكذلك تاريخ نسخها بينها وبين مخطوطة نيكلسون شبه وصلة .

٧ – نسخة مكتبة جامعة الاسكندرية ، نسخة كاملة كتب عليها : كتاب في الادب لعلي بن منصور نادر الوجود ،ولا تحمل اسم رسالة الغفران ولا اسم ابي العلاء ، تم الفراغ من نسخها في ٦ محرم ١٩٧٨ هـ ولم يذكر اسم النسخة التي نقل عنها وهي شبيهة بنسخة سوهاج .

٨ – نسخة مما نشر من نسخة نيكلسون ، النسخ الثلاث الاخيرة تنتسب الى اصل واحد لعله نسخة سوهاج او نسخة اقدم منها ضائعة.

هذا ماتوصلنا الى معرفته بخصوص نسخ رسالة الغفران نقدمه الى القراء والباحثين عسى ان يفيدوا منه في بحوثهم بثقة واطمئنان ونأمل ممن يعرف غير هذا او اكثر من هذا ان يتفضل بالافضاء بما عنده للتوصل الى معرفة الحقيقة كاملة وتوفيرها للكتاب والادباء بلا تعب ولا عناء.

الهوامش

١- القفطي (٥٦٨ - ٦٤٦ هـ انباء الرواة (تعريف القدماء لابي العلاء ص ٤٧)
- ياقوت (٥٧٤ - ٦٢٦ هـ ارشاد الاريب (تعريف القدماء لابي العلاء ص ١٠٩)
- ابن العديم (٥٨٨ - ٦٦٠ هـ) الانصاف والتحري (تعريف القدماء لابي العلاء ص ٥٢٣)

٢ - القفطي : انباء الرواة (تعريف القدماء لابي العلاء ص ٥٠)
- ياقوت : ارشاد الاريب (تعريف القدماء لابي العلاء ص ١١١- و ١١٣
- الصفدي (٦٩٦ - ٧٦٤ هـ) الوافي بالوفيات (تعريف القدماء لابي العلاء ص ٢٧٥)
والغيث المسجم (تعريف القدماء لابي العلاء ص ٤٠٥)

(٣) - سبط بن الجوزي (٥٨١- ٦٥٤ هـ) : مرآة الزمان (تعريف القدماء لابي العلاء ص ١٥٤)
الذهبي (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ) تاريخ الاسلام (تعريف القدماء بابي العلاء ص ١٨٩)
- محمد بن عبد الغفور الكلاعي (منتصف القرن السادس الهجري) احكام صناعة الكلام) تعريف ص ٤٥٣
- يوسف البديعي (القرن الحادي عشرهجري :) اوج التحري عن حيثية ابي العلاء المعري ص ٨٨
- كامل كيلاني : رسالة الغفران ط ٢ : ١٩٢٥ ج ١ ص ٣٥

٤ - بنت الشاطئ : رسالة الغفران ط ٢ / ١٩٥٧
والغفران / ١٩٥٤ص ٢٩٣ و ٢٩٤ و ١٩٩

٥ - ابو العلاء : رسالة الغفران ص ٢٩٩ و ٣٠٠

كقوله ابن القارح للحطيئة لم لم يغفر لك بقولك :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لايذهب العرف بين الله والناس

فيقول : لقد سبقني الى معناه الصالحون ، ونظمته ولم أعمل به ، فحرمت الاجر عليه ، فيقول له ابن القارح : بم وصلت الى الشفاعة ؟ فيقول : بالصدق في قولي :

أبت شفتاي اليوم الا تكلما
بهجر فما ادري لمن انا قائله
أرى لي وجها شوه الله خلقه
فقبح من وجه وقبح حامله (٣)

(٦) مصطفى صالح : نيكلسون ،كشاف مصادر دراسة ابي العلاء ص ١٥٢رقم ١٧٢
(٧) مصطفى صالح - كراتشكوفسكي : كشاف مصادر دراسة ابي العلاء ص ١٧٦ رقم ٢٤٥
(٨) كامل كيلاني : رسالة الغفران ط ٢ ج ١ص ٣٥/١٩٢٥
(٩) كامل كيلاني : مختارات كامل كيلاني ص ١٧٨/ ١٩٢٩ الحاشية الاولى
(بنت الشاطئ) : الغفران ص ١٠
١٠- ابو العلاء : رسالة الغفران ط ٢ / ١٩٥٧ص ٤٤٢
(١١) - بنت الشاطئ : الغفران ص ٨ - ١٠

١٢- مصطفى صالح : كشاف مصادر دراسة ابي العلاء ص ٢٦٣ رقم ٦٣٩
١٣ - كامل كيلاني (الشرح) ص ٢٤٠ط دار المعارف - رسالة الغفران ط ٢ ج ٣ ص ٣١ (رسالة ابن القارح
١٤- بنت الشاطئ : الغفران ص ٩

* حتى عهد دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١)
١٥- كامل كيلاني : رسالة الغفران ط ٢ ج ٣ص ١٩٢٥/٩١مجلة الهلال سنة ١٩٠٧١٥ص ٢٠١
١٦- بنت الشاطئ : رسالة الغفران ط ٢ ص ٩٥ و ٩٦ - ١٠٧ / ١٩٥٧٠
١٧- نفس المصدر
١٨- مصطفى صالح : كشاف مصادر دراسة ابي العلاء ص ١٥٢رقم ١٦٩/ ١٩٧٨ومجلة جيش الشعب / ١٩٦٩ (كشاف ص ٢٨٤ رقم ٧١٥
* ٢ في حين ان رسالة الغفران طبعت اول مرة في القاهرة عام / ١٩٠٣
١٩- تعريف القدماء بابي العلاء
- ابو العلاء في الادب المعربي ص ٤٥٣
٢٠ - بنت الشاطئ : الغفران ص : ٣٠٩ - ٣١٠
٢١ - قسطاكي الحمصي : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق عام ١٩٢٧ومنهل الموارد في علم الانتقاد ج ٣ ص ١٩٧/ ١٩٣٥٠
٢٢ - فاتنة شامي : جريدة تشرين الدمشقية عدد ١٨٣٧عدد ١٨٣٧بتاريخ ١٩٨١/٤/٢٦
٢٣ - عبد اللطيف الطيباوي : التصوف الاسلامي العربي ص ١٢١ / ١٩٢٨
٢٤ - بنت الشاطئ : رسالة الغفران ط ٢ / ١٩٥٧ص ٧٥ - ١٢٠ / وجريدة الاهرام تاريخ ١٩٦٧/٠/٢٧
- محمد عزت نصر الله : نشر نصا لرسالة الغفران اعتمد في تحقيقه حسب قوله ، على مخطوطة ،"كوبريلي زاده " اعاره اياها السيد سي رابح بورباط " وفيها اختلاف بعض الشيء عن طبعة بنت الشاطئ، تاريخ مقدمة هذه الطبعة ٩٦٨/٦/٢٥ (المكتبة الثقافية- بيروت - لبنان)

أشواق

الضفة الثانية

قصة : علي موسى

صارعت وفاء الموت ، وتشبثت باهداب الحياة ، استفاقت على نسمات لطيفة تلثم وجهها وتداعب خصلات شعرها ، احست ببرودة تتسلل الى جسدها المتعب ، حاولت النهوض فلم تسعفها قدماها ، ولكن ما لبثت ان انتصبت قامتها الممشوقة كعود من الخيزران . تنقل بصرها في ارجاء الضفة الثانية وجدتها كالضفة الاولى لا تختلف عنها في شيء فالطبيعة ساحرة ، والسماء زرقاء صافية والنسيم مضمخ باريج الورود والرياحين .

ابتسمت في سرها وقفزت دون احساس بالالم .

قبل ان تضع قدمها على الطريق ، ادارت وجهها نحو ذلك المكان الذي فارقته دون وداع ، ثم عرجت نظرتها الحزينة الى قمة الجبل الامين ، وصدر الرابية الحنون ، لوحت بيدها ، ووعدت بالعودة ثم سقطت دمعة واحدة كانت اخر ما تبقى لديها من دموع .

سمعت أنغام شبابة (رضوان) — تمتزج بزقزقة العصافير ، وموال (راضي) يصدح بعذوبة ، وثغاء الخراف يردده الصدى ، فتأجج الحنين في صدرها ، ولاحت امامها ايام الماضي ، وابتسامة الصباح عندما كان الضياء يصافح نوافذ البيت ، الغافي ، ويلج الى الداخل ، فتستيقظ ام وفاء ، وتمضي مسرعة الى سفح الجبل، تحمل بيدها رغيفا من الخبز الاسمر مدهونا بالزيت والزعتر ، وحزمة من البصل الاخضر ، ويدها الاخرى تشتبك بيد وفاء تقودان الخراف الى المراعي ،تطلب الام من ابنتها ان تراقب الخراف، [illegible] ان تقف على يدها عندما تحلب النعاج ، ووفاء تنفذ ما تميله عليها الام وبعفوية الطفولة تتناول رغيف الخبز ، تنهال عليه بشهية وهي تركض هنا وهناك ،تقطف اقحوانة من بين الاعشاب الخضراء تبتر وريقاتها وتردد كلمات سمعتها من الغيد الحسان نعم .. لا .. نعم .. وتجري فرحة تقفز بين الخراف ، تضم حملا صغيرا تقبله وتحتضن آخر .

تحذرها الام (مهلك يا وفاء) ، لكنها تتابع اللعب والجري بلا ملل .

هكذا مرت الايام ، حلوته خصبة حتى حط ذلك اليوم رحاله ، واختطفتها يد المنية فانسحبت البسمة خجلى واحتلت الكآبة ارجاء البيت مدعمة وجودها في نفس وفاء .

لم تعد الطفلة المرحة ، الطليقة خيم عليها الوجوم ، غارت عيناها واصفرت وجنتاها ، ثم قبعت في صمت دائم لاتنفرج شفتاها بكلمة او سؤال ، وكأنها اصبحت قطعة واحدة ، انهكها الصمت الحجري ، يقبل الليل فتتكوم على بعضها في احد اركان البيت ، ويغلب عليها نعاس ثقيل ثم تجتاحها احلام مرعبة ، تفيق على اثرها عدة مرات وهي مضطربة ، ترتعد فرائصها فتجهش بالبكاء .

والدها رجل غير مبال ، قضى حياته المريحة على اكتاف زوجته المرحومة ، وها هو الان لا يعير ابنته ذلك الاهتمام الذي يفترض ان يحيطها به ، ويعوض لها جزءا من حنان الام المفقود .

بعد فترة قصيرة اخذ يفكر ببديلة عن زوجته المتوفاة ، راح يسأل العجائز فعندهن يجد المقبل على الزواج ضالته ، فاخبار بنات ونساء القرية لا توجد الا في سجلاتهن .

بسهولة وجد ضالته ، وتزوج من فهمية ، لها ابنة من زوجها السابق ، أكبر من وفاء بسنة واحدة .

كلما نظرت وفاء الى زوجة ابيها تشعر بقشعريرة تجتاح كيانها ، وتشمئز نفسها ، فتقول (تبدلت الغزلان بالقرود)

تستيقظ كل صباح على صوت عنيف يصيح بها : هيا انهضي .. الخراف جائعة تنتظرك .

تهرول وفاء الى حضن الجبل الطيب تقص عليه حكايتها كل يوم ، وتعود في المساء لتحلب النعاج وتقدم الحليب الطازج الى ابيها وزوجته وابنتها .

في صباح يوم كانت مع الخراف عند سفح الجبل ، وفجأة بدأت تروح وتجيء ، تحوم كالنحلة ، تبحث كالهائم في متاهة اعياها الجري هنا وهناك ، تعبت قدماها الصغيرتان ، فجلست على العشب الاخضر تائهة النظرات ، ثم نهضت من جديد وعاودت الدوران .

تلفتت وعيناها مسمرتان في الارض وبعد لأي جثت بخشوع امام مرتفع من الارض ادركت انه المكان الذي ضم رفات والدتها وضعت زهرتين فوق القبر وانهمرت دمعتان كحبتي لؤلؤ فوق خديها ، مدت اصابعها في التراب ، حملت حفنة منه وقربتها من انفها ، ثم ضمتها الى صدرها ، والتوت كغصن ذابل قاوم العطش ثم ذوى .

بقيت هكذا وعقارب الساعة تدور وهي لا تحس بما يجري حولها .

ابتعد ثغاء الخراف عنها ، وهي ما تزال قابعة في هذه البقعة الصغيرة من المرج الاخضر الواسع .

ترامت الى مسمعها جلبة ، وضحكات كزقزقات العصافير ، ظنتها حلما الى ان احيطت بمجموعة من فتيات القرية في مثل سنها ، يحملن الحقائب ، ويرتدين الملابس المدرسية ، شعورهن معقوصة بشرائط بيضاء تنساب فوق ظهورهن باناقة رائعة .. [illegible] عينيها الملتصقتين بصعوبة وقطرات من الدموع بقيت عالقة باهدابها وقد تورمت اجفانها .

مالت برقبتها وتطلعت الى وجوههن المستبشرة ، لم يبد عليها اي اهتمام ، ولم تتحرك قيد انملة من مكانها ..

اقتربت منها سعاد ، الطفلة التي كانت تلعب معها ذات يوم بجانب البيت قبل ان تترتب عليها الواجبات المدرسية ، احتوتها بين ذراعيها الصغيرتين وبطريقة مذهلة اثارة دهشة الرفيقات ، تحدثت سعاد وكأنها تجاوزت طفولتها ، بدأت تواسيها وتزيح الحزن الجاثم عن صدرها ، امسكت بيدها واوعزت الى رفيقاتها ان يساعدنها على الوقوف ، وقفت ولكن ساقيها الرخوتين بدأتا تهتزان تحت جسمها النحيل .

افتر ثغرها عن ابتسامة باهتة ، ارتعشت شفتاها ثم انفرجت زاويتهما في اللحظة التي تسبق البكاء عادة ، رأت من خلال الدموع صورا ضبابية لامهات وقفن على الابواب ينتظرن قدوم بناتهن من المدرسة ، ثم اجهشت بالبكاء .

أخذت البنات يهدئن روعها ، ومشين معها بضعة امتار ابعدنها عن القبر ثم عدن الى البيت .

وفجأة قفزت ، راحت تعدو لتجمع الخراف المتباعدة ثم عادت وجلست فوق صخرة على حافة النهر ترمي فيه الحجارة الصغيرة واحدة خلف الاخرى كأنها تعدد الايام التي مرت على وفاة والدتها وقدماها ترشقان الماء ، امتد بصرها نحو الافق ، قطبت حاجبيها وتنهدت بعمق ثم ادارت وجهها ، تبعي الانفلات من القفص وهي في رحاب الطبيعة ، فالضيق يجثم فوق صدرها والحزن يكتم انفاسها ، ومنذ تلك اللحظة انتصبت امامها صورة تلميذة ترتدي (مريولا) وتحمل حقيبة وتعقص شعرها الى الوراء. هزت رأسها اسفا وراحت تراقب حركات الخراف ، وتعبث بالاعشاب ، تقطف الاقاحي وتصنع منها سوارا تضعه حول معصمها .

لمحت على مقربة منها كتابا التقطته بلهفة ، قلبته بين يديها وابتسامة لطيفة اضاءت وجهها الصغير ثم ضمته الى صدرها كجوهرة ثمينة ، حاولت ان تقرأ فيه ، أن تصبح متعلمة بين لحظة واخرى بدون مدرسة ومعلم ، لكن الحيرة غلبتها واعادت اليها حقيقتها فهي لا تستطيع ان تميز حرفا من آخر ، وما هذه الكتابة الارموزا لا تفقه منها شيئا ، عليها اذن ان تنظر الى الصور فقط ، وكانت خيبتها كبيرة عندما وجدت الكتاب معكوسا بين يديها ، التفتت الى باب المدرسة القريب منها ولسان حالها يقول :

" هذا الباب واسع عريض ، وعجبا كيف يضيق بي وحدي ؟ لماذا لا اقف كل يوم مع الرفيقات اردد نشيد الطلائع ،) واخذت تدندن الكلمات التي حفظتها من الصدى القادم مع نغمات الصباح ، تنهدت وقبعت من جديد تكتم حسرتها ، لا شيء يملي عليها وحدتها وفراغها القاتل .

عقدت العزم ان تجد في الكتاب خير أنيس، مشت خلف الخراف ، ووجهها يطفح بالامل والتصميم .

الحياة تولد كل يوم ، ووفاء لا تحس بصرخة تلك الولادة ، ولا ترى ما

يجري في فلك قريتها سوى ظلها الصغير الذي يتمرد على الظلمة ومسافة الطريق بين الحظيرة وسفح الجبل .

من قلب الليل الاخرس دوى صوت استغاثة ، وصوت عباس الاجش يبدد الصمت كان كالثور المطعون في الحلبة ينهال عليها ضربا ولكما ، وهي ترتجف كالطفل المولود في العراء في ليلة مثلجة ، تستنجد ، وتكرر رجاءها ، ان يشتري لها كتابا ومحفظة ، هنا اطلقت الزوجة المصونة انذارها الحاسم قائلة (اذهبي الى فراشك يا مقصوفة الرقبة مهمتك فيهذا البيت معروفة ولا داعي للتفكير بغيرها ابدا) ثم اردفت (كفاك غضبا يا عباس لانه يضر بصحتك وكفاها اليوم) .

مسحت وفاء دموعها ثم اندست في الفراش الممدود على الارض بصمت الاموات ، وضمدت جراحها بضماد الصبر ، وانتظرت الصباح لتهرب الى صدر الطبيعة الحنون .

قررت ان تمتلك حقيبة صغيرة وثوبا جميلا وحذاء جديدا .

في منتصف الليل اخذت على خشبة المسرح دور البطلة التي تتمرد على القيود ، وتنطلق بجناحي الحرية في آفاق المستقبل خارج حدود القضبان .

أحلام جميلة راودتها فتنهضت من فراشها منتهجة ، تقدمت نحو النافذة ، اطلت برأسها الصغير الى الخارج كان الظلام ما يزال مخيما ، عادت الى فراشها ، غطت رأسها وتابعت احلامها اللطيفة .

استيقظت في الصباح على اصوات الاقدام الزاحفة نحو الحقول والبساتين دخلت الحظيرة وساقت الخراف الى المرعى وصوت من بعيد الهب مشاعرها ، ذكرها باغنية سمعتها ذات يوم (راحو الحبايب وما ودعونا) اشتعل الظمأ في قلبها ، فانتفضت كلبوة جريح .

تبدل كل شيء في نظرها ، انجلت السماء واشرق الامل ، كسر الاسير اغلاله ، رفض الظلمة وخرج الى النور ، بدأت تحارب اثام الماضي وهي تحس برهبة الوحدة من خلال الفراغ الذي يقتل احلامها ومستقبلها تحس بالغربة وهي بجانب والدها مهملة كورقة صفراء سقطت في فم الجحيم ، كشجرة وجهها يابسة في صحراء يقتلها الظمأ ، بكماء تلفظها نظراته الحاقدة ، لم تتذكر يوما انه ابتسم في وجهها ، او جاملها بكلمة لطيفة تغسل صدأ همومها بعد وفاة والدتها .

عندما وقعت وفاء على عتبة الدار نظرت حولها ، رأت والدها يلاطف زوجته على مائدة الخمر ، وبقربه ابنة زوجته ، استشفت في عينيه ملامح مستقبلها المسحوق تحت عجلات رغباته ، همه الاول ان يحرك اسنانه بنهم ، كل شيء عنده ينتهي بآخر جرعة من خمرة الكأس ثم يغط في نوم عميق .

استعرضت حياتها التعسة ، عصف بها اليأس ، فلم تجد اي بصيص يوحي لها بالخلاص على يد والدها .

خرجت لا تلوي على شيء ، وصلت الى النهر صديق عمرها وشاهد على شقائها ، تبادرت الى ذهنها فكرة واحدة فقط ، قررت تنفيذها وبسرعة ..

في مخاض حياتها الجديدة ، وجدت نفسها في طريق يقودها الى باب يرفرف على ناصيته علم يستمتع بطعم الحرية ، ويلوح لها بالبداية .

مئات من الحقائب اصبحت في وسط الباحة واصوات كهديل الحمام تردد نشيد الطلائع .

لحقت وفاء ذلك العالم الجديد بروح وشخصية جديدة .

كل شيء بدا لها في قمة العطاء والجمال . البقعة مخضبة بشذا الازهار ، مكللة بالنور والوجوه ، مبتسمة سماؤها زرقاء وارضها خضراء فيعينيها يكبر الامل ، ويستيقظ الرجاء ، لا تمر فوق هضابها ريح ملوثة ، لم تصدق نفسها فتلمست جسدها ووجهها ، ..

و .. لقد نجت من مخالب الموت ، وانتصرت على غول الجهل والتخلف ، وهي الان على ارض العالم والمحبة ، على الضفة الثانية . نهضت وثيابها لم تزل مبللة ، بسطت جناحيها كحمامة بيضاء ، ثم خطت اولى خطواتها في الطريق المضيء نحو دار جدتها .

قصة — عيسى موسى / اللاذقية

عرض وتذكّر

من ذاكرتي الى ذاكرة ولدي إياس

شعر: أحمد علي حسن

طيف ألم .. وما سألت   الجفن .. عن طيف .. ألما
لعب الخيال به .. فكا   ن رفيفه .. بؤسى .. ونعمى
حلم .. أطل مع الشبا   ب ، وبعده .. ما زال حلما
حلفت لي الايام .. ان   تبقى بباصرتي .. وهما
فالى متى أنا في الغيو   ب .. أعيش .. ارجافا ..ورجما
والى متى أبني ؟ .. ويعمل   معول الايام .. هدما

أنا ما عرفت ، سوى الهمو   م .. أعيشها .. هما .. فهما
كان الشباب .. وكنت مثل   من أشتكي .. صغرا .. ويتما
ورأيت وجه الحب .. لكن   مكفهر اللون .. جهما
وغمست فيه فمي .. ليرويني   .. فأعطشني .. . واظمى
أحببته اسما .. في معا   رفه .. وانكرت المسمى
ما كنت أحسبه .. سيطلق   في صميم حشاي .. سهما

ما أصدق الجوع الاخص   يحرك الالم الاعما
ويهزك الترب الخميص   اذا شكى .. سغبا .. وعدما
من قال : اني ما أتيت   الليل .. أسود .. مدلهما
من قال : لم أشك الحيا   ة .. مرارة .. واسى .. وظلما
ثغر الرغيف .. هو الذي   اهواه .. تقبيلا .. ولثما
أحببته .. (قوها) .. أعلل   باسمه .. (نجوى) ..و (نعمى)
جوع الهوى .. والحب .. ليس   هو الذي .. أردى .. واصمى
من أين لي ، أرد الخصور   الهيف .. تجميشا .. و ضما
من أين يرقصن للغواية   والهوى .. القلب المدمى

أتريد ذاكرتي ؟ .. وتسأل   عندها .. عما .. وعما
أتريدها رحمى .. وما   حلمت بعاطفة .. ورحمى
صور شباب أبيك .. لكن   صفه .. اعياء .. وسقما
واترك له اليأس العنيد   يصارع القدر .. المعمى
بدأ الهوى صفرا .. وفيك   قد استحال الصفر .. رقما

غش الهوى قلبي .. فصور   حاله .. روحا .. وجسما
وظننت ما تهب المراشف   بارد الرشفات .. المى
زعما أديله .. واقطفه   ادعاءات .. و زعما
وعرفت .. رغم الشك: أني   حالم بالحب .. رغما

الحب نمام .. .. اذا   نزل الفؤاد .. عليك نما
ويزيد في نقص العقو   ل .. اذا تكامل .. واستتما
ومفاتن الجسد المعطر   مغرم .. وتريك غنما
كم جن فيها العابثون   وهوسوا .. لما .. ولما

قل ، للفم المجاج .. كم   اسكرتني .. ذوقا .. وطعما
أرد الرحيق لديك تر   ياقا .. ويفعل في .. سما
لم اغترب .. الا على   شطآنه .. فعلا .. ولا آسما
وأنا المحب .. وقيل قبل   اليوم : ان الحب .. أعمى

اثم الغني .. ولم يقا   رف ..خافق الفقراء .. اثما
ما اصدق الاحساس .. في   قلب الفقير .. اذا .. تنمى

يهوى .. لكي يعطي الحيا   ة .. بيادرا .. وغنى .. وعزما
يهوى الولود من الاما   ني .. لا التي تعطيك عقما

أبُنيَّ .. إنَّ أباك .. لم   يعر الهوى .. السمع الاصما
عرف الهوى نثرا .. وذا   ق حلاوة اللذات .. نظما
لم يمش في باريس مز   هو الشباب .. دما .. ولحما
هو .. بالخيال ، غزا كوا   كب افقه .. نجما .. فنجما
ومضى يطارد كل عاصية   المنال .. فطاش سهما
يرمي .. ولكن حين تنطلق   المقاذف منه .. يرمى
تبقى حواشيه الرقاق   .. نزيرة الجنبات .. كلمى
حضن الهوى ، والحب .. لم   (يجز الهوى والحب .. يتما)
لم يخف زنبقة .. لو أن   عبيرها الفواح .. نما
أيظل يحلم ، بالهوى   (شعرا وموسيقا ورسما)
كرمى لعينك .. والعيون   لهن عندي الف كرمى
سأعود .. يحملني القريض   الى ثغور الغيد .. وشما
جئت الهوى صفرا .. وفيك   قد استحال الصفر .. رقما

احمد علي حسن

عصر الشّهادة العربيّة وشعرنا العربي المعاصر

أكرم جميل قنبس

يعيش العرب الان عصر الشهادة ، وتتوالى اجيالهم الاستشهادية قارعة أبواب الحرية بالايدي المضرجة ، وقد تجاوزت بقفزة واحدة كل ركام الخوف والتردد الذي صنعته الهزائم ، وارتفعت فوق الواقع المتخاذل للانظمة المريضة ، لتفرغ حق الوجود العربي الكريم ولتدفع الى الامام قافلة التحرير على مسار خلاق مستقيم نحو الهدف .

لقد بدلت أجيال الاستشهاد طبيعة المعركة مع العدو الصهيوني الماكر ، الذي اصطدم بالانسان العربي الحقيقي ، الذي برز من ركام اليأس والاستكانة ، وتحول الى صواعق بشرية تندفع من ذروة الارادة والتصميم مسددة باحكام نحو الهدف ، لتحفر في النفسية الصهيونية هوة الخوف ونزعة التراجع .

وفي الجنوب اللبناني الدامي ، كانت انطلاقة الاستشهاد ، فبعد ثلاث سنوات من الاجتياح الوحشي ، والمراوحة العربية في حلبة الاحتجاج والاقوال واللهاث وراء السراب ، نزلت الاجيال الجديدة الى ساحة المعركة مسلحة بعزمها على اختراق جدار الموت مسلحة بايمانها ، بأن تحدي الموت نفسه هو الطريق الرحب نحو الحياة ، مسلحة بحقها في سحق التخاذل ، وسد طريق التسويات ، وتوليد اقصى القدرات الكامنة التي سجنها التردد والجبن لاطلاقها في ساحة المصير .

ولقد كانت " سناء محيدلي افتتاحية جولة الاستشهاد البطولي في الجنوب اللبناني ، فكانت بحق عروسة الجنوب ، بل عروسة العرب . يقول والدها يوسف محيدلي :(١)

لقد رأت سناء بعينيها المجازر والموت الجماعي على يدي العدو الاسرائيلي ، ورأت مآسي أهل الجنوب الذين جاؤوا الى العاصمة بيروت بحثا عن الامان وشاهدت القصف والخراب ، وكل هذا آلمها وجعل تساؤلاتها أكبر من عمرها بكثير ، ولم أكن أدري انها وجدت الاجابة على هذه التساؤلات ، فقد كانت من النوع الصامت الذي لايحكي أفكاره الحقيقية ابدا .كما شاهدت سناء الدبابات الاسرائيلية تسحق القرى ، وتدمر المنازل فوق سكانها ، وتنشر الموت والدمار في كل مكان وذهبت سناء مع عائلتها الى بيروت حيث شاهدت أيضا فظائع الغارات الاسرائيلية التي كانت تقذف العاصمة اللبنانية بالقنابل العنقودية والقنابل الفراغية وقنابل الفوسفور والنابالم ، ورأت كيف تتناثر الجثث ، ويتشرد الانسان بين الانقاض والخرائب ، وكيف يكتسب الناس عادات سكان الكهوف ، وتحول بركان الغضب في نفس سناء الى رغبة جارفة في الثأر من الغزاة وتحويل الارض من تحتهم الى حجيم ، وسرعان ما انضمت ابنة السبعة

عشر ربيعا ، الى المقاومة الوطنية واعدت العدة لتحدي الموت ، والوصول الى فكرة هي ذروة من عمليات الاستشهاد تزعزع الاساس الاستراتيجي لقدرة العدو وسطوته .

وفجأة ، أصبحت سناء محيدلي بحجم لبنان ، وتألق دمها ليضيء الضمير العربي ، ويفجر ارادة الوجود الكريم في الانسان ، ولتبرهن على نجاعة طريقها لتحرير الارض ، ودخلت سناء بوابة التاريخ بوصفها تعبيرا حاسما عن قدرة الشعوب على تحدي المستحيل ، وتساقطت كل الاكاذيب والممنوعات من طريق المعركة

لقد دخلت سناء التاريخ من أشرف ابوابه ، واصبحت عنوانا لشرف القضية ، وسمو الانسان ، ففي كلمتها الوداعية التي نقلها التلفزيون في دمشق وبيروت وقبرص الى الجماهير ، طلبت سناء من جميع شابات وشبان البلاد ، الالتحاق بالمقاومة الوطنية لانها وحدها القادرة على طرد العدو من الارض العربية ، وقالت : ان روحها ستتعانق مع ارواح كل الشهداء الذين سبقوها ، وتتوحد معهم لتشكل تتفجر زلزالا على رؤوس جيش العدو ، وأضافت : وانني أحيي كل المناضلين في جبهة المقاومة الوطنية وفي أمتي وعلى رأسهم قائد مسيرة التحرير الرئيس حافظ الاسد ، وتحيتي لأهلي واقاربي الذي اطلب منهم الاستمرار في مسيرة التضحية والفداء في تحرير كامل تراب أرضنا .

لقد ردت سناء باسم عرائس الجنوب على سياسة القبضة الحديدية التي اعلنها العدو ، وتابعت بعدها قافلة الشهادة مسيرة الكفاح الوطني ، فكانت الشهيدة البطلة لولا عبود ، والشهيدة البطلة ابتسام حرب ، والشهداء الابطال : مالك وهبي ، وهشام عباس ، وخالد ازرق ووجدي الصايغ ، وعبد الله عبد القادر ومحمود عوض المصري ، والشهيد البطل علي طلبة حسن من جمهورية مصر العربية الذي اراد تحدي انظمة التخاذل والاستسلام ليؤكد بالدم والروح عروبة مصر الخالدة .

وفي التاسع من نيسان تلون أفق لبنان ، وأصبحت السماء غير السماء ، والارض غير الارض ، وكانت عروس الجنوب " سناء " خلف هذا الزلزال الذي قصم ظهر العدو الاسرائيلي .. زرعت جسدها في تراب الجنوب .. وحولت لحمها الى شظايا في وجوه الاعداء ..(٢)

لقد عاشت سناء محيدلي من أجل ان تكون شهيدة بطلة ، تروي بدمها تراب الجنوب اللبناني ، وتحول جسدها الى قنابل وحراب ، وجهتها الى صدور الصهاينة المغتصبين لتأكد لهم ، قدرة الشعب العربي على التضحية والفداء وحب الموت من اجل غسل العار الذي لحق بالتراب العربي والامة العربية .

لقد انطلقت سناء الى هدفها بعزيمة ثابتة ، وقلب مؤمن ، وكتبت اسمها بالدم على جبينها شمس الامة العربية ، فاستحقت المجد والخلود وكانت فاتحة شهداء الجنوب اللبناني .

عشت للثأر والفدا يا سناء
أنت شمس تزينها الاضواء
رخصت عندك الحياة فغادرت
حياة حفها الارزاء
هلل العز يوم اقبلت كالسيل
اندفاعا وصفق الشهداء
فاذهبي للخلود يحرسك المجد
فأنت الخلود انت البقاء (٣)

لقد حملت سناء محيدلي في قلبها الهم الوطني ، والحقد على جرائم المستعمر وسياسته الارهابية القائمة على القتل والتشريد ، وعندما قررت ان تكون شهيدة الجنوب اللبناني ، كتبت بدمها ملحمة التاريخ والبطولة ، وجسدت بتضحيتها قيم الحق والخير والجمال ، فسمت بتلك القيم ، وسمت القيم بدورها بها .

لقد جسدت سناء كل معاني البطولة والفداء لأنها من امة تعشق الحرية والحق ،وترفض الظلم والعدوان والذل والعبودية ، لذلك وجهت براكين دمها الى حصون المعتدين لتحرق كل اصابعهم الممتدة الى تراب وطنها الطاهر ، والى رقاب شعبها الابي ، وسجلت بذلك أعلى القيم الانسانية في البذل والتضحية والفداء ، وطلبت من كافة المناضلين من ابناء شعبها الثائر ، ان يسلكوا طريق الشهادة مقتدين بتوجيهات قائدهم الرفيق المناضل حافظ الاسد ، الذي اعلن ان طريقنا الى التحرير هو الشهادة او النصر

شموخا ثم تيها يا سناء
فأهلك من عرين الاسد جاؤوا
روى التاريخ فانتشت الليالي
ووجهك بين صفحته السماء
فوجه الغاصب الغازي ذليل
ومن نار الجنوب به اكتواء
فدون عطائها صغر العطاء
ودون فدائها صغر الفداء

لقد أهديت حافظنا سلاما
تحية كل حب يا سناء
فمنه مجدنا وهو المرجى
اذا ما اجتاح أمتنا الوباء (٤)

ان المقاومة اللبنانية تعتبر رعاية دمشق اساسا لانتصارها، وطبيعتها القومية . لقد آمنت المقاومة الوطنية ان الانسان اقوى من الالة ، وان اجيال الاستشهاد تستطيع التغلب على العقبات التكنولوجية عندما ترتقي الى المستوى الاسطوري للمقاومة ، والعمليات الاستشهادية ليست ظاهرة فردية وذات بعد نفسي شخصي بل هي حصيلة لتعميق ورسوخ روح الكفاح الشامل ضد القهر والتنكيل والمجازر الاسرائيلية ، وقد نمت هذه الظاهرة خلال تعبئة عفوية تصاعدت من الجذور ، واتخذت من المقاومة الوطنية وعملياتها مدرسة قائمة ومستمرة تتطور دروسها يوما بعد يوم ، واغتنت بالاستعداد البطولي للتضحية بالنفس شريطة الحاق اكبر حجم ممكن من الخسائر . وتنعكس حصيلة هذه العمليات في حالة الخور والتراجع النفسي في صفوف قوات الاحتلال الاسرائيلي التي لم يعد لديها اي امل او مطمع غير الانسحاب يقول الشاعر محمد كامل صالح في قصيدته " نجمة الصبح " :

سناء ..
يا روضة .. من عندم .. خضراء ..
ياوطن الحياة .. بعد الموت .. والبقاء .
يا نجمة الصبح .. ويابشارة الضياء ..
ياجرح شعب نازفا .. ملاحم الدماء ..
حرف به النقطة : دنياوات ألفداء
وكلمة تصورت .. هنالك .. ابتداء
أسطورة قرأتها .. أعراس كربلاء ..
مدت جناحيها .. فطار خلفها المدى ..
وانزرع الردى ..
واختزت قبرا .. ذلك الفضاء ..
وفي الثرى .. أشلاؤهم تناثرت : هباء (٥)

لقد تحطمت اسطورة العدوان امام عظمة الانسان المؤمن بقضيته الوطنية ، وانهارت أحلام الغزاة الطامعين ، عندما رأوا أشلاء جنودهم تتناثر في العراء والفضاء ، وان ما تشهده الساحة العربية من بطولات وعمليات استشهاد في الجنوب اللبناني ، وفي فلسطين المحتلة ، واندفاع الشباب العربي من مصر وسورية وفلسطين ولبنان وغيرها من الاقطار العربية ، في عمليات استشهادية اضافة لشهداء الجيش ، الذين سطروا الملاحم في قتال العدو الصهيوني ، كلها تشير الى العودة الى الطريق الصحيح الى بعث امجاد الامة ، وان رعاية قطرنا لمفهوم الشهادة خير دليل على ان الامة العربية تمتلك منهجا ثوريا ، وفهما عميقا لمفهوم الشهادة يستند الى الجذور الفكرية والتراثية في تاريخ الامة .

وتاريخ امتنا العربية حافل بالتضحيات ومليء بقوافل الشهداء الذين وصفهم القائد المناضل حافظ الاسد ، " أكرم من في الدنيا وأنبل بني البشر " لذلك نجد ان شهداء الجنوب اللبناني ، وفي طليعتهم الشهيدة البطلة سناء محيدلي ، كانوا يوجهون التحية والمحبة والتقدير لسيادة الرئيس حافظ الاسد الذي اولى الشهادة والشهداء كل رعاية وتكريم ، ويحلون أبناء الامة لتعلم مبادىء الشهادة ومعانيها من مدرسة حزب البعث العربي الاشتراكي ، وأمينه العام الرفيق المناضل حافظ الاسد .

وصلت تحيتك الحبيبة والخضيبة يا سناء
وصلت وأعياد الشآم يرف غرتها ... الجلاء
وعلى شعار أمية .. تفتر كالشفق الدماء
قالت : وبين فجاج أحزمة اللظى يحلو اللقاء ..
ومع القنابل والدخان الجهم يخضر الرجاء
ومع المنية ، والمنية وحدها .. كتب البقاء ..
أقدارنا يا معجم الشرق .. الشهادة والفداء .. (٦) ..

ثم يتوجه الشاعر ليخاطب السيد الرئيس حافظ الاسد ، راعي الشهادة والشهداء ، ومعقد الامال وموطن الرجاء ان هذا القائد الملهم هو الذي استطاع ان يقود أمتنا على دروب النصر والتحرير والصمود ، وهو الذي دفع الابطال الى ساحات الشرف والخلود ، فتفجرت ينابيع الشهادة والعطاء ، مواسما دفاقة لاتنضب من اجل تحقيق اهداف الامة ، واسترداد الارض العربية السليبة والحقوق المغتصبة والقضاء على التخلف والاستغلال والتفرقة ، والتجزئة والظلم والفقر والجهل في أية بقعة من الارض العربية .

يا فارس الشام الذي بلوائه عقد الرجاء
الشرف فيك تفجرت رؤياه واخضل النماء
وتحية من صور من أشلائها بعثت سناء
يا سيدي ، وكذاك يشرق خلف كل دم جلاء (٧)

ان وحدة الكفاح الوطني التي خاضها شعبنا البطل الى جانب المقاومة الوطنية اللبنانية ، زرعت الامل في نفوس مناضلينا من اجل تصعيد العمل في جبهة الصمود والتصدي ، والوقوف بحزم امام الاخطار الاستعمارية التي تهدد باحتلال الوطن العربي .

ان سورية العربية وقفت بصدق وشرف الى جانب اللبنانيين من اجل استعادة حقوقهم وطرد الغزاة المستعمرين من اراضي الجنوب اللبناني ، ووقف مقاتلنا السوري الى جانب المقاتل اللبناني ، وقاتلا في خندق واحد ، لترتفع راية الامة عالية ، وتندحر جيوش الاحتلال ويبقى تراب الجنوب اللبناني عربيا طاهرا :

لي بالشام حراب عانقت ألمي
وزغردت للشهيد الحر ينعتق
يصوغ للفجر آمالا محجلة
فيهتدي للشداد الفارس الحذق
وهبي " تشعلي قناديلا مضرجة
ليغسل العار والارز الذي هرقوا
وهبي " زرعت بطون الارض اوسمة
جند المنون على أقدامكم مزق
عصفورة الارز " غنت من جوارحها
ان الجنوب سيبقى الوارف الورق ..

(٨)

لقد أكد شهداؤنا الذين ساروا على الدرب في قافلة سناء محيدلي ، واهتدوا بلوائها العربي الذي صان العروبة وفجر شمس الحرية ، ان شعبنا العربي السوري الذي تدرب في معقل الشهادة والشرف وفي مدرسة حزب البعث العربي الاشتراكي ، اقوى من كل أسلحة الفتك والتدمير التي يحشدها العدو على حدودنا ، ليرهب بها شعبنا ، الذي يفجر براكين من الجمر ، كما تتحول ذرات تراب الوطن الى قنابل وحمم تصفع وجه الخونة والمتآمرين والمعتدين ، وتحرق جميع اوراقهم ، واذا ارادت المقاومة الوطنية اللبنانية ان تستمر في مقاومتها ونضالها وكفاحها المسلح لتحرير ارضها ، فما عليها الا ان تضع يدها بأيدي مناضلي البعث العربي الاشتراكي الذين يجودون بالغالي والرخيص في سبيل اعلاء كلمة الحق والوطن ، والضرب على ايدي العابثين والمخربين بأمجاد الامة والتاريخ العربي :

سناء يا مشعلا للعرب قاطبة
أنت العروبة والامجاد والالق
لا تحزني فصقور الغار جارحة
ان البغاث بأرض الصقر لا تزق
فكل غصن تلظى جمره غضبا
كل الطغاة بحر الجمر قد شهقوا
بيروت مهما غزاة الموت قد عبثوا
فيك ، وان قطعوا الاجساد اوحرقوا
فسوف يعلو لواء الثأر ترفده
نسورنا الصيد والفرسان والفرق .

(٩)

لقد توالت قوافل الشهداء في كل موقع من الساحة مؤكدة عزم الاجيال الجديدة على اقتلاع جذور الاحتلال وانهاء العصر الاسرائيلي ، ومحو كل اثر من آثاره في الارض وفي النفوس المريضة ، ليعود الوطن حرا كالشمس نقيا كالفجر طليقا من كل قيد ، تبنيه اجيال المعاناة والدم والعرق ، كما حلمت به وطنا للجماهير الكادحة ، ووطنا للعدالة ، والتقدم ، ومنطلقا للوحدة العربية " .. وقد انضمت الى قافلة شهداء المقاومة الوطنية اللبنانية ، بطلة من بطلات اتحاد شبيبة الثورة في القطر العربي السوري ، لتروي بدمائها الزكية تراب الجنوب اللبناني ، ولتؤكد وحدة النضال العربي المشترك ضد العدو الصهيوني وعملائه ، ولتثبت ان جيلا يؤمن بالشهادة طريقا للنصر والتحرير لن يهزم ابدا ..

لقد جاءت هذه البطلة ، من شمال شرق سورية العربية ، لتزرع جسدها في جنوب لبنان المقاوم ، وحملت وثيقة التاريخ الجديد لابناء هذه الامة وثيقة الدم كما يكتبها بأجسادهم ودمائهم شبيبيو الثورة ، وهم يرفعون راية الحزب والقائد المعلم حافظ الاسد .

ان ارض المقاومة في جنوب لبنان لا تعرف الا لغة واحدة ، هي لغة قومية المعركة ، وامتزاج الدم العربي ليشكل وحدة الثورة ، وطريق النضال ، وبالتالي طريق النصر الحتمي ، فالخندق الواحد المشترك الذي يجمع بين السوري واللبناني والفلسطيني في جنوب لبنان ، هو خندق العروبة ، ولن يكون الا خندق المقاومة والفداء والتضحية ، وانطلاقا من ذلك ، تعلمت " حميدة " في مدرسة حافظ الاسد ، حقائق النضال ومضامينه الثورية ، وابعاده المستقبلية ، وتعلمت مع جيل البعث ، جيل شبيبة حافظ الاسد ، كيف " أننا في سورية نتقاسم معكم الحياة والشهادة " يا ابناء الجنوب ويا رجال المقاومة الوطنية اللبنانية .

وهكذا كانت " حميدة مصطفى الطاهر" النموذج الحي والخلاق للجيل الذي تربى على الممارسة الثورية والنضالية والكفاحية في منظمة اتحاد شبيبة الثورة ، وكبر بتعاليم الرفيق القائد حافظ الاسد و افكاره على طريق صياغة المستقبل ، واقامة مجتمع البناء والتحرير : (١٠)

سقاك الفرات حليب الفدا
فجردت سيفا روته العدا
وفجرت فينا عيون الفداء
فمن مقلتيك الفداء ابتدى (١١)

لقد اثبتت المرأة العربية السورية انها على قدر كبير من المسؤولية لاتقل عن الرجل قولا وعملا ، وادركت العلاقة الجدلية بين المجتمع والحياة ،فانطلقت بكل طاقاتها في صنع مقوماتها الحياتية ، فدخلت معترك الحياة متطورة مطورة ، كما اصبحت احد روافد ثورة البعث العربي الاشتراكي سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وعسكريا ، فلم تعد البندقية حصرا على الرجل ، بل نزلت المرأة الى خندق الدفاع والمواجهة ، وأثبتت انها امتداد تاريخي لخولة بنت الازور ، وجميلة بوحيرد ، وامتداد للخنساء وسكينة بنت الحسين .. كما حققت المرأة انجازات كبرى طالما طمحت اليها الامة العربية واثبتت ان مقاومتها للاحتلال لا تقل عن مقاومة الرجل ، فالشعور الوطني والقومي والاحساس الكبير بمسؤولية القيام بالواجب الوطني دفع المرأة العربية بالنزول الى ساحة التدريب والمقاومة ، فخلعت اثواب الزينة ، وغادت خصلات شعرها وجه المرأة ، وكسرت طوق العادات القديمة التي كبلت المرأة بها زمنا طويلا ، وراحت تتدرب على احدث انواع الاسلحة لتثبت قدرتها تفوقها ، وتزحف فوق الاشواك والرمال ، لتزرع جسدها في ساحات وميادين القتال ، فترتفع راية الامة والوطن ، ومن اجل هذا كانت الشهيدة البطلة " ألماظة خليل " اول شهيدة في القفز المظلي والتدريب العسكري في سورية العربية ، وفي الوطن العربي كله ، فجسدت باستشهادها قيم الوطنية والحرية ، لتعلن فاتحة الاستشهاد البطولي للمرأة العربية ، ولشبيبة هذا الوطن العربي الممتد من الماء الى الماء :

ما أعرفه ..
ان فتاة من وطني تدعى " الماظة "
خلعت اثواب الزينة وفساتين السهرت
الليلية ..
وحطت فوق الهام قلنسوة الميدان
وراحت تزحف فوق الرمل وفوق الشوك
على أصعب انواع التدريب الحربي مكللة
بالغار ..
ما أعرفه .. عن الماظة ..
ان فتاة من وطني
كسرت اطواق الذهب وقيد العادات السيئة
وحطمت الحاجز بين الوهم وبين الواقع
وتخطت كل الافكار البائدة
وسارت بشموخ صوب المجد
تركز علما أحمر في أعلى هامة جبل النار
وترفع راية نصر وشموخ فخار
لشبيبة هذا الوطن الممتد من الرمل الى
الرمل ..
ترسخ قيم المرأة بالعمل
وبالتدريب وبالحرية ..(١٢)

لقد كانت الماظة خليل فاتحة شهيدات الوطن على دروب النضال ضد اعداء الحرية والانسان ، ومن القطر اللبناني الشقيق ينطلق الشاعر نجيب جمال الدين من منظار وحدة الدم والمصير ووحدة الارض والشعب ، وتوحيد المقاومة المسلحة فيوجه الاستعمار معلنا ان الشعب العربي السوري واللبناني هو شعب واحد، قدره الوقوف في خندق واحد ، في وجه الغزوات الاستعمارية وتقديم قوافل الشهداء من ابناء الشعب :

شهداؤنا ، شهداء جلق
والوغى قدر لنا .
وعدونا استعمار (١٣)

ويفتخر الشاعر النجيب بأبطال الشام الميامين الذين باتوا العين الساهرة على سلامة الوطن وحمايته ، وكانوا كما اراد لهم قائدهم المفدى الرفيق المناضل حافظ الاسد ، شعبا يرخص الروح و الدم من اجل نصرة الحق ودحر الظالم ، وقد تمثلت بطولاتهم المشرفة في حرب تشرين التحريرية التي فجروا فيها ينابيعا من النور والدم من اجل استرداد الارض العربية والكرامة العربية ، ومن اجل كسر شوكة الغزاة الصهاينة الذين اعتقدوا ان خيول العرب قد كبت ولن تقوم لها اية قائمة بعد حرب حزيران عام ١٩٦٧– لقد كانت ارادة الجماهير اقوى واكبر من أساطير المحتلين وباتت اسطورة الجيش الذي لا يقهر خرافة الى الابد ، نسجتها خيوط العنكبوت في

عقول اعداء الشمس والحرية ، وحطمتها ارادة الجندي العربي المؤمن بعدالة قضيته وحرية ترابه .

وشبول حافظ في الشآم فواس
ما ضم مثل خيولهم مضمار
لا يعرفون من الزمان سوى متى
تشرين يأمر .. ان يكون الثار ؟
ولدوا مع التصحيح .. ثم ثلاثة مرت
ودوى صوت الزآر .
فتسابقوا للبذل يوم دعاهم للمجد
تشرين الخلود .. وطاروا
فاذا أساطير العدو خرافة
واذا كبار المعجزات صغار (١٤)

ان القائد المناضل حافظ الاسد ، فجر فينا عيونا من التضحية والفداء كما فجر فينا براكينا من الثورة الكامنة في أعماقنا ، وقادنا الى دروب البناء والتحرير :

سعيت الى الجولان وجها مناضلا
ومن فجرك الاتي فيالق تزحف
وألف ربيع من دماء نسورنا
وألف صباح للشهيد يرفرف
وألف من الابطال ينتظر الوغى
ليرقى الى حيث الشهادة ترشف (١٥)

ان شهدائنا الابرار منارات ساطعة ترشدنا الى طريق الخلاص ، وتهدينا الى دروب التضحية ، وتعمق ايماننا وتصميمنا وعزمنا على متابعة مسيرة التاريخ العربي الزاخر بالامجاد ، والمليء بالمفاخر . بدمائهم كتبوا الخلود لشعبنا ، وبدمائهم سطروا انصع صفحات المجد والبطولة ، ومن دمائهم ستبقى راية الشهادة عالية خفاقة ، لتحقيق الرسالة الخالدة التي استشهدوا من اجلها ، ولحماية التراب العربي من كل غاز ودخيل ، وقيام مجتمع الطبقة الواحدة ، مجتمع العمال والفلاحين والجنود العقائديين والثوريين المؤمنين بوحدة الدم العربي:

بأبي الشباب الحاملين دماءهم
في غمرة الاحداث فوق الراح
المؤمنين بوحدة ورسالة
هي من صميم تراثها النفاح
الساهرين على حماية ارضهم
من غاصب جان ومن سفاح
الحافظين على مكاسب شعبهم
للعامل المهضوم والفلاح
زحف العروبة لن يعيق مسيره
ابدا فحيح او سعار نباح

زحف به وطني الكبير مؤزر
بالنصر ملء مرابع وبطاح
وطني فدته وتفتديه قوافل
بالمال والاولاد و الارواح (١٦)

ان قصص البطولة والشهادة ، من المآثر العظيمة التي يعتز بها شعبنا ويفتخر . وأبناء الشهداء ، ابناء اكرم من في الدنيا ، وأنبل بني البشر، ترعاهم اليد الامينة ، والقلب الكبير الذي جعل الشهادة والشهداء في المقام الاول ، فكرمهم ايما تكريم ، وجعل أسرهم تقر في امان واطمئنان ، لا خوف ولا قلق ولا حاجة ولا عوز .

والشهيد الذي ضحى بدمه وروحه ، يستطيع ان يستقر في جنات النعيم وهو قرير العين ، مطمئن على اسرته ، وعلى كل فرد من افرادها ، لانهم يعيشون في دفء العاطفة والحنان والمحبة في مدينة البطولة والابطال ، في مدينة ابناء الشهداء .

.. في هذه المدينة الخالدة تكمن عظمة الشهيد ، وقدسية الشهادة وفيها تتجسد الاهداف النبيلة للرسالة السامية التي ضحى رجالنا من اجلها ، وفي حدائقها الغناء ، يلمح المرء الورود، والزهور التي تتفتح مصبوغة بدماء الاحرار ، وتحت سقوفها تزهر ايضا براعم البطولة التي تروي وتسقي من معين فجرته الايدي الخيرة و العقول النيرة التي تتجسد بالقيادة الفذة التي تحمل على عاتقها حماية رسالة شهدائنا الاخيار ، وضمان مستقبل وطننا العربي الكبير ، قويا حرا منيعا ، يحتل مكانته اللائقة به في العالم (٧) .

يا أبتي يا عرس آمالي وعرس الموكب
ان كنت قد فقدت منك عطفك المحبب
فحافظ بات لنا أحنى علينا يا أبي
ومنهل الفداء دوما كان دوما مشربي (١٨)

ان عظمة الشهداء من عظمة القضية التي استشهدوا من أجلها ، وان تكريم الشهداء يبقى منقوصا اذا لم يتوجه الى اسرهم وابنائهم الذين هم أمانة مقدسة في أعناقنا .

ان هؤلاء الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل الوطن والانسان لجدير بكل العرفان والتقدير .

لقد عملت القيادة السياسية في القطر العربي السوري على رعاية ابناء الشهداء من خلال مدارس داخلية حديثة مجهزة بكل ما يحتاجه الطالب من أجل متابعة التحصيل والتفوق .

ومدارس ابناء الشهداء هي احد مظاهر هذه الرعاية والاهتمام الابويين من قبل الرفيق القائد لاسر الشهداء وابنائهم ، ولا بد لكل من يزور مدارس ابناء الشهداء في دمشق وحلب .. الا ان ينظر باعجاب واكبار الى هذه المأثرة العظيمة من مآثر تكريم الشهادة والشهداء ، والتي غدت بفضل تكريم القيادة السياسية ورعايتها تقليدا وطنيا مقدسا .

ان مدارس ابناء الشهداء منارة من منارات الحزب والثورة ، وصرح على طريق بناء الوطن ، من خلال بناء الانسان وخلق الجيل العربي الواعي الملتزم بقضايا شعبه وأمته ، المسلح بفكر الحزب وبمبادئه الثورية .

الهوامش :

١- ملحق صحيفة البعث - العدد ٦٨٨٠ تا ١٩٨٥/١٠/٦ ص ١٩
٢ - العماد مصطفى طلاس - صحيفة البعث العدد ٦٨٠٢ تا ١٩٨٥/٦/٢٤
٣ - ابراهيم البيطار - صحيفة البعث، العدد ٦٨٠٢ - تا ١٩٨٥/٦/٢٤
٤ - محمد حسن حشمة - مجلة جيش الشعب العدد ١٥٣٣ تا ١٩٨٥/٥/١
٥ - محمد كامل صالح - صحيفة البعث - العدد ٦٧٨٣ تا ١٩٨٥/٥/٣٠
٦ - نجم الدين الصالح - صحيفة الثورة ، العدد ٦٧٧٠ تا ١٩٨٥/٤/١٧
٧ - نفس المصدر .
٨ - أكرم جميل قنبس - مجلة الجندي العربي ، العدد ٢٩٥ آب ١٩٨٥
٩ - نفس المصدر .
١٠ - صحيفة المسيرة - العدد ٥٦٩ تا ١٩٨٥/١٢/٣
١١- اكرم جميل قنبس - من قصيدة - شهيدة البعث .
١٢- حسين حموي - ايقاعات من ذاكرة الايام - ص ٧٨ - ٨٢
١٣ - نجيب جمال الدين - صحيفة البعث - العدد ٦٣٥٤ تا ١٩٨٥/١٢/٢٠
١٤- نفس المصدر .
١٥ - جابر ابراهيم سلمان - من قصيدة وليس على الاهوال غير مكافح
١٦ - ياسين الفرجاني - مجلة الثقافة - العدد ٩ تا ١٩٦٣
١٧- الشهداء الابرار - من كلمة اللواء محمد ملحم المدير العام لهيئة مدارس ابناء الشهداء ص ١٤
١٨- اكرم جميل قنبس - الثقافة الاسبوعية العدد ٣٩ تا ١٩٨٥/١٠/١٩

بقلم : اكرم جميل قنبس

سيرة ذاتية

سعيد أبو الحسن

نيران على القمم

مقدمات المعركة الإجتماعية

حلقة ٣١

عندما نقيس الامور بمقاييسها الصحيحة نجد ان شعبنا يدين لهؤلاء الذين وضعوا ارواحهم على اكفهم وقرروا تحرير محافظتهم صباح ٢٩ ايار ١٩٤٥ ، والذين لولاهم لتغير سير الامور ، ولكنا - ربما - بقينا نعاني من الاحتلال ردحا اخر من الدهر ، حتى يقوم فريق اخر من شعبنا المناضل ، الذي لا يمكن ان ينام طويلا على ضيم ، باتمام واجب التحرير ..

واكرر ان الكثيرين من الانصار والاصدقاء كانوا في فعاليتهم مثل احسن المنظمين واحيانا افضل من احسنهم - ولكي أزيد القارىء علما بما تم داخل فرع العصبة من ايار ١٩٤٥ حتى ايار ١٩٤٦، اقول ان عدد المنتسبين الى الفرع بلغ ٢٥٨٢ عضوا منهم ٥٦٩ من العسكريين وقوات مسلحة ، والباقون من المدنيين ، وهناك عدد لا يستهان به - لا يقل عن خمسمائة عضو - من الذين حالت ظروف عملي في النصف الثاني من ١٩٤٦، وفي عام ١٩٤٧ دون تسجيلهم ، بحيث يكون عدد العصبيين في فرع الجبل قد بلغ ثلاثة الاف عضو على وجه التقريب،

نحن لم نحبان نتاجر بعمل قمنا به على اعتبار انه واجب مقدس . ولم نكشف اسماء عناصرنا العسكرية اطلاقا ، احتياطا للتغيرات الممكنة ، وحرصا على أمنهم وسلامتهم في عملهم الوظيفي داخل جيش وطني فتي لا يجوز ان يكون فيه اي ولاء لغير الامة والوطن من خلال انضباطه وطاعته لقادته النظاميين ، اي اننا لم نقبل لانفسنا التدخل بشؤون الجيش بعد صيرورته جيشا وطنيا صرفا ، وبعد جلاء الجيش الفرنسي المحتل .

الا ان تيارات جديدة بدأت تظهر وتفرض نفسها - وكان لا بد ان يكون لنا موقف محدد منها :

كان بعض الطلاب الجبليين يتلقون العلم في ثانويات دمشق او دار المعلمين اوبعض كليات الجامعة - وانضم بعضهم الى حركة البعث العربي الذي كان قيد

التأسيس ، ولدى اول احتكاك بالطلاب البعثيين تبين لنا انهم حلفاء طبيعيون ليس بيننا وبينهم من خلاف من حيث الاهداف القومية البعيدة المدى (الستراتيجية بتعبير اليوم) على الرغم من بعض الاختلافات المرحلية (التكتيكية بتعبير اليوم ايضا) ، وبعضهم كانوا قد مروا بالعصبة قبل انتمائهم الى البعث (الذي كان ما يزال حركة فكرية وليس حزبا) - وقد تعاونا في مجالات نضالية مختلفة ، وكنا نسير في التظاهرات معا ، لمناسبة ذكرى وعد بلفور مثلا ، او احتجاجا على اسر الحكومة الوطنية في لبنان ، فهم لا يعرفون ان لفظة (بعث) واردة في ميثاق العصبة بالذات - ولكنهم كانوا يحصرون نشاطهم بين صفوف المثقفين عامة والطلاب منهم خاصة - بينما كانت العصبة اوسع قاعدة واعضاؤها اكثر تنوعا

هذا في العاصمة ، الا اننا نحن في الجبل ، لم نتوسع الا داخل صفوف الشباب وكنا مضطرين الى اكثار عدد المنتسبين لمقاومة التيارات المضادة : المستعمر وحلفائه ، ثم كثيرون استغلوا هذا الحدث القومي العظيم فراحوا ينشرون اسماؤهم وصورهم في الصحف على اساس انهم من عناصر التنظيم الذي قام بالعملية وبعضهم الف الكتب ليعطي نفسه كل شيء ويحرم غيره من اي شيء ، وهنا اقف مع ضميري امام التاريخ وامام شعبنا لاقول: ان لا صحة لاي ادعاء خارج هذه الاسماء ، الواردة في السجل المحفوظ والمحفوظ منذ عام ١٩٤٥ وكل ما كتب خلافا لذلك فهو كاذب مختلق ولا سيما كتاب مذكرات ضابط عربي في الجيش الفرنسي للمرحوم ابو حسن الصباغ ، عن موضوع ٢٩ ايار بالذات وكتاب فؤاد يوسف الاطرش ، الدروز وما جاء فيه عن الحركة الشعبية ، وانا آسف ان توجد اقلام يطيب لها الاختلاق والتزوير والتزييف في قضايا تاريخية يعالجونها كما يعالجون الحكايات والاساطير واحلام اليقظة ، لقد آن للحقيقة ان تظهر بلا تزوير ولا تزييف ولا زيادة ولا نقصان ، وآن للحق ان يعاد الى اصحابه الحقيقيين لا ادعيائه المزعومين ، فقد انتفع بالحدث من انتفع وتاجر به من تاجر وقد آن لنا ان نقول كما قال الشاعر :

" فياليت القتيل يعود " ليعرف من بكى ممن تباكى ..

يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٤٥ الساعة الخامسة مساء ولد ابني الثالث "رافع " وها لا بد من وقفة عائلية تلقي ضوءا على مجرى الاحداث الخاصة .

كانت المراسلات بيني وبين العم رافع ابو الحسن المهاجر الى الولايات المتحدة الاميركية مستمرة منذ ايام الدراسة . وكان يمدني ببعض المعونة المالية من وقت الى اخر ، هدية رأس السنة ، مثلا ، وكان شديد الاعتزاز باسم" رافع " من ناحية تاريخية قومية - ومن ناحية انتساب فرعنا العائلي اليه . وعلى هذا فقد راح يراسل المرحوم الاستاذ مصطفى الرافعي ، وبعض ال الرافعي في طرابلس (لبنان) معتقدا انه لا بد ان تكون هنالك صلة قربى بين فرعنا العائلي هذا وآل الرافعي حيثما كانوا . وعرفت منه ان الاستاذ الرافعي وافقه في كثير من الاراء واطلعه على معلومات تؤيد التربى

على اساس ان ال الرافعي لهم علاقة انتماء الى عائلتنا ، علاقة لم اعرف كيفيتها ولم اطلع على المراسلات الدائرة بين العم حسن وبينهم .

وكان العم حسن شديد الاهتمام بالادب والادباء وكثير المطالعة ، عنده مكتبة غنية تحتوي على كل الكتب التاريخية والادبية المشهورة حتى الاربعينات ،وكان من المهاجرين الواعين قوميا الذين يتابعون الاحداث الوطنية ويسهمون في مد الثورات والحركات الوطنية بالمال والتأييد – وقد زاد اهتمامه بي حينما صار يطالع مقالاتي في الصحف – فضلا عن رسائلي المطولة اليه – وقد رغب الي ان اسمي مولودي الجديد (رافع) احياء للذكرى الحبيبة الى نفسه ، وقد لبيت رغبته ، في سعادة لاتوصف ،وكان قد بحث الموضوع ذاته مع الاخ الدكتور حسين ابو الحسن (ابن اخيه) فسمى ابنه (رافع) ايضا ، وهكذا اصبح لنا رافعان بدلا من رافع واحد اطال الله عمرهما ، وقد حققا كل ما بنيناه عليهما من آمال فلقد كانا بعض الحلم الذي اغمض عليه العم حسن عينيه ، عندما غادر هذه الدنيا الفانية .

كنت ابحث مع العم حسن في رسائلنا المتبادلة ، موضوع انتقالي من الجبل ، موضوع الهجرة الداخلية ، الى دمشق كتجربة ، واذا لم تنجح التجربة ، فالى القامشلي مثلا مبدأ الهجرة من حيث هو مبدأ كان متفقا عليه لاسباب كثيرة. ليس اقلها ضيق مجال العمل بالمحاماة ، .. الطموح الى الخروج عن منطقة ضيقة مقفلة ماديا ومعنويا ، الى العاصمة حيث توهمت ان مجال العمل اوسع ، وان التمركز سهل ، ومن اجل تنفيذ الفكرة كان لا بد من مساعدة تمكنني من تحمل نفقات الانتقال ومن الانفاق بضعة اشهر قبل ان تصبح لي موارد في مقري الجديد .

وارسل الي العم حسن مبلغا من المال فانتقلت الى دمشق ورتبت اموري على النحو التالي : استأجرت جزءا من منزل في حي الشيخ محيي الدين : غرفة ارضية لاستقبال الزائرين وغرفتين ومطبخ وحمام في الطابق العلوي ، وكان جارنا صف الضابط المرحوم توفيق حسن حاتم الذي استشهد بمعركة فلسطين عام ١٩٤٨،وكان من رفاقنا في العصبة – واتفقت مع الاستاذ تاج الدين الجندي احد المسؤولين في العصبة على ان احتل غرفة في مكتبه الكائن في السنجقدار مواجه مدخل القلعة الحميدية في الطابق الثالث من دون ان يكون بيننا علاقة مشاركة ، كل يعمل لحسابه – وكان المرحوم الاستاذ فهمي المحائري قد حصل على امتياز لاصدار جريدة (الحضارة) اليومية ، وشعرت بأنه في ضائقة مالية فأسهمت معه بألف ليرة سورية فضعفت ميزانيتي لان هذا المبلغ كان يساوي نصف ما املك واحتفظت بعلاقتي بمحاكم السويداء لتصفية الدعاوي القائمة وعدم التخلي عن الصلة بالاهلين وبالرفاق الشبان بخاصة ، وصرت اعمل صار عملي للجريدة يستغرق اكثر وقتي احررها ، اصحح (بروفاتها) ابقى من الساعة السابعة صباحا حتى الساعة الخامسة بعد الظهر حين تخرج الجريدة الى الشارع ، فآخذ عددي واعود الى البيت لاستريح ، والذهاب والاياب كانا بالحافلة

الكهربائية (الترامواي) واذهب الى السويداء يوما او يومين في الاسبوع فأصرف الدعاوي وانهي المشاكل ، اما في دمشق فلم اوفق فيعمل المحاماة : اذتبين لي ان المحامي المستجد في المدن الكبرى يجب ان يكون له شريك اقدم منه ، وان يكون هو متفرغا لا تشغله جريدة ولا غير جريدة ، وان يكون له اصدقاء ودعاة ، ولم اكن مستعدا لشيء من ذلك ، وحينما تعبنا من بعد المواصلات في الشيخ محيي الدين انتقلنا الى الحبوبي المحاذي للشعلان حيث استأجرنا بيتا مستقلا لاننا ايضا لم نشعر بالراحة والهدوء في منزل مشترك ، وصمدنا نحو سنة على هذه الحال ولكنا شعرنا بأننا فشلنا في التمركز في العاصمة ، فكان لا بدمن العودة الى الجبل ولا سيما ان الانتخابات الجديدة بدأت تلوح في الافق ، فعدنا وكان العود احمد .

هذه اللمحة من الحياة العائلية لا تمثل سوى زاوية محدودة من نشاطي خلال هذه الفترة – والحقيقة ان من اراد ان يعرف ماذا كتبت وماذا حدث من شؤون سياسية عامة تلك السنة ١٩٤٦ يحتج الى مراجعة الصحف وقراءة مقالاتي فيها : باسمي الصريح ، او بتوقيع " جهينة " ، تحت عنوان (الخبر اليقين " وهي الزاوية ذاتها التي كنت احررها في الجبل تحت عنوان (المجالس والمضافات) بتوقيع " جهينة " ايضا ، عليه ان يراجع ايضا ما نشرته فيجريدة الزمان العراقية وجريدة الاحرار الدمشقية وفي الصحف والمجلات الاخرى .

لقداتيح لي تلك السنة ما لم يتح لي من قبل : ففيما عدا مقالاتي في المكشوف والبيانات والخطب السياسية لم يكن بعض ما اكتبه يصل الى القراء كما هو :بل كان كثيرا ما يعدل او يحرف وكان ذلك يحز في نفسي واصبر لعدم وجود بديل .

كنت عام ١٩٤٣ وضعت مسودة كتيب بعنوان (ما بعد الحرب) ضمنته افكاري الاشتراكية ، وقلت ان حل جميع مشاكل العالم بعد الحرب سيكون بالنظام الاشتراكي ، وحددت موقفي من الاشتراكية على اساس قومي ، بعيدا عن الاممية التي كانت الشيوعية متمسكة بها كثيرا في تلك الايام – وقد ارسلت مسودة الكتاب الى الشيخ فؤاد حبش لعله ينشره في منشورات " دار المكشوف " فأجابني بأن مثل هذه الافكار سابقة لاوانها ، والقراء لن يقبلوا عليه وربما سبب لي بعض الازعاجات – واعاده الي . وفي كانون الثاني وشباط عام ١٩٤٦ ، وضعت بدمشق كتاب " ايها العربي " ضمنته كل تصوراتي للدولة العربية الواحدة وللمجتمع العربي التقدمي ، وارسلته الى بغداد ، الى مجلة " عالم الغد " عن طريق الاخ الاستاذ صبيح الغافقي ، الذي كان له كل الفضل في نشر مقالاتي في صحف العراق ، منذ كان يحرر في جريدة الزمان " وقد عزمت مجلة عالم الغد على نشر " ايها العربي " واعلنت عن ذلك وسجلت تحت عنوان الكتاب – من منشورات عالم الغد رقم ٨ – ثم بعد فترة تراجعت الدار عن النشر وما عدت اذكر الاسباب ، وكنت قد نشرت في عالم الغد مقالة ذاع صيتها آنذاك بعنوان : " العرب بين شعوبية

القرون الوسطى وأممية القرن العشرين " وقد لخص المرحوم الدكتور طه حسين هذا المقال في المجلة التي كان يصدرها آنذاك (عام ١٩٤٦) واذكر ان بعض المحامين العراقيين ذكروني بهذا المقال بعد ثلاث عشرة سنة ، خلال مؤتمر المحامين الذي عقد في بيروت عام ١٩٥٩.

سأستعرض اهم الاحداث التي جرت عام ١٩٤٦وكانت لي بهاصلة . كانت الاحزاب المعارضة للكتلة قد شكلت تجمعا باسم اتحاد الاحرار ، وكان مؤلفا من عصبة العمل القومي (فهمي المحائري) جماعة الاحرار (منير العجلاني) الدكتور سامي كبارة والدكتور صبري القباني ، وكان الدكتور سامي كبارة ذا قلم امضى من السيف في جريدته (النضال) وعدد من كبار المستقلين امثال الاستاذ سعيد حيدر (رئيس مجلس الشورى سابقا ورئيس حزب الاحرار والاستاذ نبيه الغزي المحامي الذي سيصبح قاضيا ثم رئيسا لمجلس الدولة فيما بعد) والاستاذ سعيد محاسن محام ووزير سابق والاستاذ نزهة المملوك والامير جعفر الحسني الجزائري رئيس المجمع العلمي العربي فيما بعد). والاستاذ علي بوظو (من شباب حزب الشعب فيما بعد) والاستاذ زكي الخطيب – وزير العدل السابق – وكان يتعاون مع هذا التجمع حركة البعث الاشتراكي ، والحزب العربي الاشتراكي .

كان هذا التجمع قد اتخذ لنفسه مكتبا في شارع العابد ، وكانت اول مناسبة سياسية لظهوره هي ٨ آذار ١٩٤٦، ذكرى اعلان استقلال سورية ووحدتها (المؤتمر السوري) والقى الاستاذ فهمي المحائري خطابا عنيفا هاجم فيه الحكم على كل مستوياته ، والقيت خطب عديدة ، وقد كان لي دوري ايضا فالقيت خطبة تتغلب فيها الخطوط القومية المستقبلية على الخطوط الانية المحلية – وقد سمعت بعض القوم يتهامسون (ترى هل سيخلقون لنا زعامات جديدة) ؟ .. اذن هكذا .. هذا كل ما يهم هؤلاء الناس : زعاماتهم وهذه الزعامات يجب ان تكون دمشقية معروفة والا فهي مرفوضة مبدئيا ، ويومها ادركت الاسرار كلها : ادركت لماذا يتحدث المؤرخون عن ميسلون ولا يتحدثون عن المزرعة ، ادركت لماذا يعتمون على معاركنا الرائعة خلال العهدين العثماني والفرنسي ، ويبرزون اقل تظاهرة تجري في دمشق ولو اشترك فيها عشرة من الصبية انها عصبية اقليمية ، عصبية عمياء مغرضة هي مرضنا ، نحن العرب ، وهي التي ستكون سبب كل هزائمنا الداخلية والخارجية .

وكانت المعارضة تشتد وتنسق اعمالها : فالانتخابات ستجري عام ١٩٤٧، ويجب ان يعدل قانون الانتخاب قبل ذلك ، وهذا موضوع رئيسي : فبدلا من انتخاب الوجهاء ، سيكون الشعب هو الذي ينتخب كل مواطن عن نفسه ، مباشرة وبلا وسيط، فمعركة الانتخابات على درجة واحدة معركة اساسية يجب ان تخاض ..

وكانت " الحضارة " والنضال " ، رأس الحربة في هذه المعركة الى جانب " البعث " وبيانات الاحزاب ، وحدث مرة ان اوقفت جريدة النضال للدكتور سامي كبارة ، فحصل الدكتور صبري القباني على امتياز جريدة يومية هي (النصال) ،

وراحت تصدر بدلا من النضال فلم يكلف الامر اكثر من ازالة نقطة من جميع كليشيهات النضال .

ولكن الحكومة من جهتها استشرت في القمع ، ففي يوم ٩ ايار ١٩٤٦ الساعة الحادية عشرة والنصف اعتقل الاستاذ فهمي المحائري بتهمة المساس بمقام رئيس الجمهورية والهجوم على الحكم . واحيل الى محكمة البداية الجزائية ليحاكم موقوفا - وكان مبنى المحكمة - قبل بناء القصر العدلي - مجاورا لساحة الشهداء من الشمال ، وكانت تظاهرة للمحامين ضد الحكم قل مثيلها - فقد تطوع للدفاع عن الاستاذ المحائري نحو خمسة وثمانين محاميا من ابرز المحامين في سورية ، آنذاك ، من بينهم على ما اذكر الاستاذ سعيد محاسن ، الاستاذ نبيه الغزي ، الاستاذ فيصل العظمة الاستاذ تاج الدين الجندي ، الاستاذ زكي الخطيب ، وغيرهم ، وكانت الجلسة الاولى بتاريخ ١٥ ايار والثانية في ١٦ ايار - وقدم طلب لاخلاء سبيله بكفالة فلم يقبل الطلب - وهنا كان لا بد من تحرك على مستوى اخر - وكان لا بد من اكراه الحكومة - وهي الخصم الحقيقي - بطريقة الضغط الشعبي . فذهبت الى السويداء واعددت برقية شديدة اللهجة فيها دفاع عن حرية المواطنين مع عبارة (يجب اخلاء سبيل فهمي المحائري) وحمل البرقية المرحوم جميل لوكاش الى سلطان الاطرش ، قائد الثورة السورية الكبرى ، فوقع البرقية وطيرت الى دمشق ، وبعد ٢٤ ساعة من وصول البرقية الى رئيس الجمهورية اخلي سبيل الاستاذ المحائري

وفي جلسة المرافعة تعاقبت على منبر الدفاع اثنا عشر محاميا كنت احدهم وقد اغتنموا الفرصة ليقولوا في الحكم والحاكمين مالم يقله مالك في الخمر - وما زلت اذكر كلمة اعجبتني للاستاذ فيصل العضمة حين قال ، ما معناه انه لا يستغرب ان يلاحق امثال الحاكمين امثال الاستاذ فهمي المحائري ، فقد انتهى الجهاد بالنسبة اليهم ، ولم يعودوا يرون اي مبرر للنضال ، ماداموا قدوصلوا ولهذا يرون في نضال الاستاذ المحائري ورفاقه من اجل مستقبل افضل لكل الشعب شططا لا يجوز التساهل فيه ، وتهديدا لرؤيتهم الخاصة يهزها ويملؤهم قلقا على طمأنينتهم الخاصة .

وكان اخر جندي فرنسي قدجلا عن الاراضي السورية يوم ١٧ نيسان ١٩٤٦ واصبح الحكومة مكشوفة ، وبمواجهة الشعب مباشرة ، (المخبا بان) كما يقولون - فلقد كانت الاخطاء والاساءات تنسب سابقا الى الاجنبي المحتل ، اما الان : فهاتوا برهانكم ان كنتم صادقين " ها انتم تمسكون بايديكم مقاليد الحكم ، فماذا اعددتم لصالح هذا الشعب ؟ ..

بعدما اخلي سبيل الاستاذ المحائري وقضى فترة مرض في مستشفى السادات ، قامت مجموعة كبيرة من المعارضة بزيارة لسلطان في منزله في القرية ، وكنت قد اعددت الترتيبات اللازمة لهذه الزيارة ، واعددت لهم وليمة غداء باسم " فرع العصبة " في الجبل ، وكانت الزيارة ناجحة والتفاهم تاما على الخطوط العريضة لسياسة المرحلة - وقد خاطبت قائد الثورة - بحضور الزائرين - قائلا:

لا نريدك ان تعتقد اننا نزجك فيمعركة سياسية لصالح حزب او فئة - بل كل ما فعلنا اننا أتيناك برجال يعترفون لك بالجميل لانك بقيت الشجاع الوحيد الذي يقول كلمة الرجال ليرد بها كيد اشباه الرجال ، فانت وما تقرر، وانت ومسؤليتك وكنتايضا قد قمت بالتمهيد لزيارة اخرى عدد افرادها محصور : ما زلت اذكر من بينهم الاستاذ سعيد حيدر ، ، ولما تولى صبري العسلي وزارة الداخلية في وزارة سعد الله الجابري واصدر المرسوم التشريعي رقم ٥٠ الذي يصادر الحريات ويجعل من وزير الداخلية نوعا من ديكتاتور تمهيدا للسيطرة على معركة الانتخابات القادمة ، جاءني الاستاذ، سعيد حيدر ومعه الاستاذ نزهة المملوك ، جاءاني في منزلي المتواضع في السويداء وبسطوا الي فكرتهما وخلاصتها : .. ان المرسوم ٥٠ بحاجة الى وقفة من سلطان مشابهة لوقفته منقضية الاستاذ فهمي المحائري • وذهبنا الى القرية وعقدنا اجتماعا سريا في غرفة سلطان الخاصة وشرحوا له الوضع وقالا له : اذا بقينا ساكتين وظلت الحكومة سادرة في غييها فسيأتي يوم نترحم فيهعلى زمن الانتداب، والاحتلال ، واستجاب سلطان ووافق علىان يوقع بيانا ينشر في الصحف ويوزع على اوسع نطاق ، واتفقوا على ان نرسل اليه البيان في اليوم التالي لتوقيعه •

لقد كتبت فيحياتي اشياء كثيرة ذات اهمية بالغة ، مقالات ، بيانات سياسية ، قصائد، كل شيء ، الا انني لم اشعر بكامل المسؤلية النضالية كمواطن مثلما شعرت يوم انشأت بيان سلطان لتهديم المرسوم ٥٠ كانعلي ان اتحدث بالدساتير والقوانين وحدود سلطة الحكومات وحقوق الشعوب ، وكان علي ان اهدد بلسان رجل يعرف الجميع انه يقول ويفعل ، وحين اعددته ارسلته معرفيقنا واخينا السيد كرم الحناوي فعاد بهموقعا من سلطان يوم ٦ تشرين الثاني ١٩٤٦ويوم ٧ تشرين الثاني اوصلته الى دمشق فنشر ووزع على اوسع نطاق ، واطاح البيان بالمرسوم ، وقال الاستاذ سعيد حيدر في جلسة خاصة لبعض اخوانه : انه لم يقرأ على كثرة ما قرأ مثل هذا البيان الجامع بين الحقوق والسياسة والادب جميعا ، ولم اتوقف عند هذه المحطة الصغرى ، ولم اتبجح ولم اقل لاحد انني كاتب البيان ، فانا اناضل ضد الطغيان ، ولا يجوز للمناضلان يرى شخصه في المعركة •

اوصلت البيان الى دمشق في منتهى السرية وانا مسافر الى لبنان مع وفد من الجبل لحضور كتاب رفيقنا الاستاذ هلال رسلان على الانسة سلوى شقيقة المربية الكبيرة والاديبة المعروفة الانسة عفيفة صعب في عاليه ، قضينا تلك الليلة ٧ - ٨ تشرين الثاني في بيت ال صعب ، وفي ٨ تشرين الثاني نزلنا الى بيروت، حيث قمنا بزيارة الامير شكيب ارسلان ، وكانت صحته معتلة بعض الشيء ، وكانت المرة الاولى التي ارى فيها امير البيان عن كثب ، اذ انني حينما رأيته عام ١٩٣٧ يوم عاد من منفاه في سويسره ، رأيته من بعيد ، واعجبني في الامير شكيب ذاكرته القوية فقد سأل عن اشخاص يعرفهم من الجبل فردا فردا ، وسأل كل واحد منا عن عمله ودراسته وتطلعاته ،

وكانت هيئته تحكي حكاية نضاله الطويلة الطويلة وهو يملأ المجلات مقالات سياسية، ويصدر الكتب ويقوم بالرحلات ويتوسط بين الملوك العرب لحل خلافاتهم .. ويشمل نشاطه مشرق الوطن العربي ومغربه على السواء، كما يشمل العالم الاسلامي في نظرة جامعة نادرة المثال، وعدنا الى عاليه فبتنا ليلتنا في منازل آل رضوان وهم ارومة آل ابو عسلي، رضوان في السويداء، وعدنا الىدمشق يوم ٩ تشرين الثاني، وكنت قد بدأت أشعر بتعب العينين، فراجعت الدكتور جميل كبارة في ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٦ووصف لي نظارة تسلمتها صباح ١٢ تشرينالثاني وكاناول عهدي بالنظارة التي لازمتني بعد هذا التاريخ طوال عمري، وعدت الى بيروت لعمل مستعجل، ورجعت يوم ١٣ تشرين الثاني ١٩٤٦، وكانت قد جرت مظاهرة طلابية يقودها شباب حزب البعث ضد الحكومة وممارساتها الدكتاتورية، فأصيب في المظاهرة الطالب نسيب بن سليم خطار وادخل المستشفى، وتوفي شهيدا، وكان مأتمه يوم ١٤ تشرين الثاني، فألقيت خطابا في المأتم حملت فيه على تصرفات الحكومة وتماديها في طغيانها .

كان هذا التحرك كله على مستوى السياسة الوطنية العامة، فماذا فعلنا لصالح محافظتنا عام ١٩٤٦م؟

كنا قد اصبحنا قوة كبرى مسيطرة فاذا لم نجد ما يشغلنا فقد تؤدي كثرتنا الى مخاطر . ولذلك كان علينا ان نوجد في هذا المجتمع الريفي شبه البدائي وما نهتم به ويملأ اوقاتنا . فشجعنا المطالعة واوجدنا مكتبات، متواضعة فيكل نقطة ارتكاز تقريبا، وشجعنا المسرحيات (الروايات التمثيلية الهادفة، وشجعنا استكمال الدراسة بالمراسلة، او الاعداد لبرامج الشهادات المختلفة عن طريق الدراسة الحرة، فكم من واحد من العصبيين درس على نفسه جميع المراحل التالية للمرحلة الابتدائية : فحصل على المتوسطة، ثم الثانوية، ثم الجامعية، لايهمه كبر سنه ولا تقف في طريقه عقبة مادية او غيرها، وبعضهم بعد الثانوية التحق بالكلية العسكرية او باحدى كليات الجامعة وتابع دراسة جادة، وحين كنت ابحث مع احدهم كنت اقدم نفسي نموذجا لهم : اذ كنت اول واحد من ابناء الجبل يدرس الحقوق وهو يعمل، ثم اخذ شبان كل قرية يعتنون بنظافتها فيرفعون الحجارة من الازقة، ويشقون الطرق ويرصفونها داخل القرية، وعيون الجيل القديم ترقبهم ساخرة لبعضالوقت، ثم معجبة مشجعة ثم متعاونة .

ولكي تعم روح العمل المنتج المجتمع بشقيه : الرجال والنساء، اوجدنا حركة صنع سجاد شاملة، وحياكة ألبسة صوفية متنوعة، فقد نظمنا هذه السنة ١٩٤٦مسابقتين احداهما لصناعة السجاد والثانية لحياكة الالبسة الصوفية، وجعلنا الجائزة الاولى مائة ليرة لمن تصنع اكبر عدد من السجادات في عام واحد، وخمسين ليرة لمن تحيك اكبر عدد من الالبسة الصوفية لعام

واحد ، لقد قصدنا الكمية هذه السنة على ان تكون سنة ١٩٤٧للنوعية ، ولكي نضمن عدم الغش اشترطنا مواصفات معينة ان يكون الصوف من الصوف الجبلي المغزول والمصبوغ محليا ، لاعطاء هذه الثروة المهملة ما تستحقه من أهمية ، وان ينسج في صلب السجادة او قطعة اللباس الصوفية اما عبارة مسابقة عصبة العمل القومي لعام ١٩٤٦واما شعار العصبة المكونة من حرفي (ع) كوفيتين متصالبتين يربطهما حرف (ق) كوفي ايضا مع تاريخ ١٩٤٦، هذا ما اشترطناه كحد ادنى ، اما النتائج فكانت مدهشة وفاقت كل تصوراتنا ..

لقد شاهدنا اواخر السنة عند استعراض النتائج سجادة نسج فيها النشيد الوطني السوري (حماة الديار)بكامله وسجادة فيها خريطة الوطن العربي وسجادة فيها خريطة سورية مع النشيد الوطني وابيات من الشعر العربي القومي ومن يبحث بين اوراقي لا بد ان يعثر على رسوم فوتوغرافية لبعض هذه السجادات ولكي نشرك نساء البيت جميعا في العمل والاهتمام به ، تساهلنا فقبلنا ان تحسب جميع السجادات المصنوعة وفق هذه الشروط في البيت الواحد ، على انها عمل امرأة واحدة ، وكانت النتيجة ان التي فازت بالجائزة الاولى للسجاد صنعت اربع سجادت في السنة ، والتي فازت بالجائزة الاولى للملبوسات الصوفية عملت اربع عشرة قطعة في السنة من اسعد ايام حياتي كانت تلك الايام التي طفت فيها ورفاقي على البيوت لنستعرض هذه التحف الرائعة ، يكاد الانسان لا يصدق ما يرى بام عينيه :أكل هذا تستطيع ان تصنعه بنات هذا الجبل المحروم ؟ لقد انتقمت الان للمشهد الذي المني روحي بعد الثورة ، مشهد البنات الراجعات من صلخد بعد قيامهن باعمال الخدمة المنزلية لقاء قروش معدودات ، او اللواتي رأيتهن في بيروت يقمن بالعمل ذاته ، اذ كنا نحن حفنة من الشبان الفقراء نستطيع ان نفعل هذا فكيف لو تبنت الحكومة هذه المشاريع واستت لها المعامل ومولتها؟

الصخرة البيضاء

قصة : جيكوسلاف كاليب
تعريب : محمد الخطيب

كان سفح الجبل شديد الانحدار ، لكنه لم يكن صخريا اذ ثمة طبقة ترابية كانت تغطي صخوره •• وكان يكسو الطبقة الترابية بساط كثيف من العشب ، به سندسية أخاذة واتقان في الطلعة كأنما نسقت الطبيعة نبته بعناية فائقة •

وهناك على بعد لا بأس به باتجاه القمة وعلى الجانب الشمالي منها نبتت أشجار السنديان والدردار •• كانت رؤية الصخور نادرة ، باستثناء أعال رمادية ملساء كانت تظهر هنا وهناك •• رماديتها غامقة كأنما الصخر قد غطي بقشرة شجر سميكة •

كانت هناك صخرة فريدة في لونها ونوعها ، تختلف عن صخور التلال الجرداء بل تختلف عن كل الصخور في أي مكان ــ تلك الصخرة التي عرفها « ستّرانا » جيدا وصار يفكر بها دائما •

وفكر « سترانا » طويلا ••

ان أول شيء سوف يعمله حالما يبزغ النهار هو ذهابه الى أحد كرومه الثلاثة •• يربط الصغير من كرماتها الى عصيها ، ويرش نباتها بسلفات النحاس ــ أو بالسلفور فقط ، حسبما يراه مناسبا • أو ، فيما يتعلق بكرمه الجديد بالقرب من الصخرة الرمادية ، فانه سيزيل وعورة أرضها بوصة بوصة •• يحفر الارض بمعوله ويكسر الحجارة بمطرقته ، أما الصخور الكبيرة فسوف يستعين بالاسفين عند اقتلاعها من جذورها •• وهكذا يعمل في تمهيد أرضها حتى الساعة التاسعة من صبيحة كل يوم • ويظل دائما يفكر « بالصخرة البيضاء » •• وعند الساعة التاسعة ــ أو حتى قبلها ــ سوف يجهز كل أدواته ، الاسفين والمعول والكيس وبداخله الازميل والمطرقة الصغيرة الثقيلة ؛ كل هذه الادوات ستكون جاهزة •• يضعها على ظهر حماره الصغير ويذهب بتؤدة الى غابة السنديان •

* * *

تسارعت قرعات قلبه عندما بلغ ذلك المكان في القسم السفلي من الغابة ــ المكان الذي تلاشت منه أشجار السنديان ــ وهي القطعة التي دأب على العمل فيها منذ الخريف الماضي •

حفر نطاقا حول صخرة كبيرة ، ثم نسف بالديناميت قطعة شديدة الصلابة من الصخور المتكومة فوق بعضها على هذا التل ، كما تتكوم الارغفة الكثيرة في الفرن •• كان حجم هذه القطعة الصخرية يزيد على المتر المكعب الواحد ــ حجرا نظيفا صافيا ــ جانبها المعرض للهواء رمادي اللون ، أما بقيتها فكانت بيضاء كبياض جوف الفطره تتخلله سطور حمراء •• وكان جانبها المقطوع من بقية الصخرة ساخنا شاحب الصفرة •• كانت تتراءى ل « سترانا » كلما اقترب منها وكأنها حبة فاكهة ضخمة أنمتها الارض بطيبها وغذتها الشمس بأشعتها ، وأنعشها النسيم العليل بلمساته •

كان « سترانا » في كل مرة يذهب فيها الى هناك يسير حول هذه الصخرة الدائرية متعجبا من كيفية تكوينها بهذا

الثقل وهذا الحجم ـ إذ لم تكن كبيرة كثيرا ولا صغيرة كثيرا ـ انه يستغرب وجودها هكذا بحجمها المعقول ووزنها الثقيل ، كما لو كانت شيئا من الحكمة خلق بطريقة فريدة •• تراءت له كأنها رغبات جمة وحكمة هائلة قد لفت في هـذا الخلق الرمادي القديم ؟ زحزحت بالرغم عنها من سباتها المظلم العميق وأخرجت الى الحياة بالقوة •• وشعر « سترانا » نحو هـذا الحجر بنفس الشعور والالتزامات التي يشعر بها الوالد عادة نحو ولده •

وتملك « سترانا » مزيج من مشاعر السرور والوجل وهو يضع يده فوق الحجر •• ومر بيده على جانبه الداخلي • انه خشن تتأت فيه حبيبات صلبة مكتنزة •• ان سطح هذه الصخرة الصمـاء مليء بالمفاجآت بالنسبة لـ « سترانا » الـذي سيعمل ازميله فيها فيفكك النتوءات ويزيل الحبيبات عن الوجه الناصع البياض الذي يرسمه للحجر في مخيلته •• هذا الوجه يظهر له وكأنه وجه امرأة عفية جميلة تختال بقدها المكتنز أمامـه وصوتها الملائكي الرفيع ينساب لطيفا الى أذنيه ••

وراح الازميل يعمل في مواضع متعددة ورنين السعادة ينبعث من لمسات شفرته الحادة للحبيبات الناتئة • أما « سترانا » فراح يتوقع ضجيج ضحكة فرحة تنفجر حوله •• ومع توقعه هذا كان يعي أن للحجر بيئته وحياته الخاصتين ، بيئة وحياة يعرفهما « سترانا » جيدا • لهذا أخذ مطرقته وضرب بها على قطع نافرة تلتصق بالحجر ، وقطعها منه •• ورسم في ذاكرته تربيعة الحجر التي يمكنه تكوينها ، ثم تناول ازميله الحاد ثانية وتناول المطرقة الصغيرة التي في كيسه وجعل يسوي التربيعة كما تخيلها •• كانت تتناثر ، في كل ضربة من مطرقته على الازميل ، قطعا في أحجام قشور البيض المحطمة ، وظهرت من تحتهـا أشكال مبتورة تتلألأ كأنها معالق صغيرة أحدثها الازميل بمروره على سطح الصخرة •• واعتقد « سترانا » مغتبطا أن الحجر الذي يريد قد تكون من هذه الصخرة التي لم تكن لتتكسر بسهولة والتي ما فتئت تتلألأ كالرخام ، خاصة بعد قطعها •

ورغم تجمهر الافكار المختلفة عليه اختار بكامل ارادته أن يسير في طريقه هذا مسرورا ، دون وهن ـ متجردا باذلا كل كيانه من أجله •

واستمر الازميل •• « طق •• طق •• طق•• طق •• » في التهام النتوءات وصارت الحبيبات تتلاشى تدريجيا من على السطح لتكشف من تحتها عن الوجه الحقيقي للحجر • ومع عمل الازميل ، أشاح « سترانا » ناظريه ، وشعر أنه غدا مقيدا بصورة تلقائية بهذه الحصاة وهذا العمل •• وأغمض عينيه على الرؤيا المتجسمة في ذهنـه ، على الشكل المرسـوم في ذاكرته والذي سيمنحه الحياة في يوم ما •• أغلق كلتا عينيه على حلمه هذا مخافة أن يفلت منه وتضيع آماله فيه اذا ما أطلق العنان لعاطفته في سرعة الاختيار •• بهذا الحجر فقط تكمن أفكاره الحاضرة ، وبهذا الحجر توجد الرمال التي يمكنه أن يوادي رأسه فيها ••

وهبت الريح أكثر فأكثر فمحت دفء الشمس من حوله وصارت تعبث بقميصه وتكرمشه على ضلوعه ، وجعلته يرتجف بفعل لمساتها الباردة لجسده •• انه الآن يشعر بوحشة أكثر ، ان ثمة أرق يمضغ نفسه •• فهو يؤمن أنه لا يستطيع عبور ذلك الحد ، أو تجاوز حدود تلك التلال وتربيعة هذا الحجر •• انه يشعر أنه مجبر في وضعه هذا بصورة مبرمة ، وهذا ما يجلب عليه الحزن والشؤم ••

وتأوه « سترانا » من أعماقه ••

ـ اوه •• لقد جلبت لي الريح أحزانا كثيرة •

كم كان والده محوطا بكروم عنبـه وببراميل النبيذ ، وبالابقار والتين وحقول الحنطة ؟! انه دائما يفكر في العثور على جواب لهذا السؤال • كم كانت حياته حذرة ؟ وكيف استطاع أن يستخلص من عيشه الشاق ذلك حياة مناسبة تكفل تحصينه ضد الجوع ـ فيما لو داهمت المجاعة بلده ـ وضد الحرب ، وحتى ضد الهزات الارضية !•• لقد بنى بيته كالقلعة الحصينة لمقاومة تلك الهزات • ولكن والده كان لا يعرف الطمأنينة ولا الراحة في حياته •• لم يعرف ما هو السرور •• لقد وضع ابنه تحت نظام المعول الشاق مذ تفتحت عيناه على الحياة ـ معتقدا أنه السبيل الوحيد للكسب ـ لم يعطه قط وقتا للراحة •• لم يسمح له بالذهاب الى المدرسة ، بل كان يمزق كل ورقة أو

مخطوطة يراه يلهو بها •• ولم يدعه يمارس أي لون من ألوان الفرح أو حتى التسلية والرياضة • أما « سترانا » فكان على عكس والده •• أرسل كلا ولديه الى المدرسة منذ اللحظة التي بلغا فيها سن التعليم ، وسمح لهما بمتابعة تعليمهما ، اذ تخرج كبيرهما وعمل مدرسا ، أما الآخر فما يزال يتعلم •• وقد ذهبا للجيش وأديا فروضهما لوطنهما أثناء الحرب •

وكلما توغل « سترانا » في التفكير بحياته كلما امتلأ قلبه بالمرارة من والده ، من كرومه ومن أرضه •• تلك المرارة جعلته يفكر في أشياء معينة هامة ومفيدة • ان الحياة كلهـــا مخلوقة من تلك الاشياء ، وهذا هو ما كان يدفعه للاهتمام بكل ما يتعلق بالطبيعة والاختراعات التكتيكية •• كان متأثرا بما يصنعه أو يخترعه الرجال •• ان أقرب مثال لديه هو تلك الشفرة الحادة التي في الازميل والتي يفكر فيها بكل تموجات عقله ••

وسمع صوت صفير يجوب الفضاء حوله ••

وارتعد وهو ينظر الى السماء متلمسا مصدر ذلك الصفير •• انه صقر قذفت به زرقة السماء ليهبط هكذا فيشل هواجس « سترانا » • واستمر صفير أنف الصقر برهة حتى اذا ما عثر على كومة من الهشيم هبط على بعد عشر ياردات منها•• واختفى الطير بين الهشيم لفترة ما لبث بعدها أن صفق جناحيه وطار في الاعالي ، حاملا معه شيئا بمخلبيه •

وهنا شعر « سترانا » أن شيئا قد سلب منه ، كما لو كان واقعا تحت تحد عنيف •• كأن ذلك الصقر أخذ منه شيئا بالقوة أو ارتكب منكرا بحقه • وبكل كراهية وحنق تمنى سترانا لو أنه استطاع قتل ذلك الطير •• لكنه استدار جانبا نحو القرية ، محاولا التخلص من هذا الشعور الغاضب ـ الممزوج بكآبة أفكاره لساعة خلت ••

★ ★ ★

كانتا تتسلقان المرتفع ببطء متوجهتان نحوه •• تسيران بين الهشيم والاعشاب الطويلة •

وتتابعت الضربات على الحجر فتنعكس أصواتهـــا على السطح وعلى أمواج الفضاء القريب دون أن تنفذ الى أعماق الحجر ، أو دون أن يصدر عن تلك الاعماق شيء من هذه الاصوات •• انها فقط تعكس أنين الازميل على صفحة الحجر وهو يسويه قليلا قليلا ليفصله عن أصله الذي أوجدته فيـــه الطبيعة ، ليصير هكذا أداة طيعة في يد الانسان يكونه كيف يشاء • استمرت ضربات الازميل « طق •• طق •• طق •• ، وأخذت القشور الرقيقة تنزلق لتدل على أن سطح الحجر قد سوي وأنه غدا ناعما هادئا كسطح بحيرة هادئة ••

ألقى « سترانا » الازميل والمطرقة جانبا وتناول « المقياس » ليفحص به مستوى السطح ، ثم تناول « الزاوية » وفحص بها زوايا الحجر •• وراحت تتشكل في الفراغ حوله أشياء كأنها خيال جديد كاحتمال جبار•• ووضع قدمه اليسرى على الصخرة المكسورة بينما قدمه اليمنى تستريح على الحجر نفسه • وثابر على الضرب ، متجولا في مخيلته مع الزمن والكرة في صدره تتنامى ، كما لو كانت تكافح لتكون الحياة بذاتها •

أشرف عمله على النهاية ، رغم أنه لم يكن من أعماقه يرغب في بلوغ النهاية •• وكم كانت النهاية المطلوبة بعيدة ؟! لا يعرف •• بل ولا يريد أن يعرف • ربما كانت النهاية محتمة قريبة ، أو بصورة أوضح ربما كانت كما يريدها هو ، كانت الصخرة تتقلص دون أن تلين مغلقة ذاتها على ذاتها ، في عالم بعيد المنال ، تقترب من كيانها •• تخال ذلك الكيان كأنه في خلود لا يمكن الاقتراب منه• انك تستطيع أن تحطمها وتستطيع أن تكسرها الى قطع صغيرة جدا ، ولكن ذلك لم يكن قط ما تريد الوصول اليه • ان الذي تريده هو أن تكشف عنها وأن تغمسها في الحياة • واليد •• اليد الكبيرة الصامتة طالما كدحت بألم لتثبت مبادئها ، تسيطر عليها النظرية المعروفة منذ أن تعرف الانسان بالحجر من أقدم الازمان ، عندما عرف الانسان كيف يستخدمه في حياته البدائية كأداة لحفظ الزيت وحسب •

ها قـــد صارتا على حافـــة قسم من جانب التل ، علق بملابسهما القش والاتربة •• كانت ناستا تسير خلف كيفيتا ، وعيناها تغصان بالدهشة وبشيء من الرهبة ، كما هو حالها دائما في خشيتها على طبيعتها ••

لكن « ستيرانا » لم يتمم بعد الجملة التي يقولها في أعماق

نفسه ، وكان تفكيره ـ ما يزال يحلق في مكان ما في البعيد ـ متعلقا تحت سحابة سوداء ومخترقا بواطن الحجر كأنه هدف آخر لم يصل ولم يتكامل بعد. وهناك رآها .. كانت تقف بيضاء متزنة ، تتطلع اليه دون أن تأتي بحركة .. لهذا فانه لم يشعر بهما حالما وصلتاه .. واندفع « ستراتا » بنفسه ليقترب منها ، لينفذ الى أعماقها ليحددها في فؤاده ولتصير في متناول يده بحرية .. تماما كما يمتلك حريته . يريد أن يمتطي جناح الريح السحرية ويحلق فوق التلال والحقول ، وفوق الصخور والطرقات ، ويذهب الى قريته ويخطو فوق جسرها العريض بكامل حريته .. يريد أن يحلق فوق البحار على امتدادها أمام ناظريه ويسير في أي مكان يريد دون أن يعترض سبيله أحد ، أو يثنيه عن عزيمته مخلوق .. انه لا يريد أن يلقي التحية على أحد ولا يقبل أن يرهب أحدا ..

وفجأة أخذ « ستراتا » يكنس ببصره التلال المحيطة به ، وانتقل منها الى الكروم والطرقات كأنه يبحث عن شخص ما ، وما لبث أن عاد الى سابق وضعه .. مسح وجهه بيده وعاد الى حجره وضربه مرتين أو ثلاثا وقال يتساءل ببساطة ، على طريقة رجل الاعمال :

ـ لماذا كل هذا .. باكرا ؟..

وتطوعت كيفيتا بالاجابة على تساؤله :

ـ لقد صار الوقت ظهرا !..

ونظر « ستراتا » الى أعلى باتجاه الشمس قائلا :

ـ بلى .. صارت ظهرا !..

وطرح الازميل والمطرقة جانبا على السطح الممهد من الحجر وفتح كلتا راحتيه وأرخاهما بجانبه وسرح نظره الى الاراضي أمامه .. تعلوه الرغبة في الذهاب الى هناك ، على أنه ـ على ما بدا ـ غير رأيه ، فتناول الاسفين وحشر طرفه تحت قطعة الصخر .

ـ هيا بكما ساعداني !..

ـ أوه .. ليس ذلك ثقيلا يستدعي المساعدة!.. وأردفت « ناستا » تقول :

ـ اننا الاثنتان نستطيع رفعه !..

فتطلعت اليها كيفيتا ساخرة :

ـ أنت تستطيعين ازاحة جبل بكامله .. حتى أعمق أعماق البحار لا تصل الى ركبتيك !..

وتقدمتا الى الحجر .. وأخذت الايدي الناعمة تلامس جزءا منه ، بينما راحت يدان أخريان خشنتان تعبثان بالقسم الآخر .

ـ انه خفيف .. في خفة الزبد !

ـ لنبدأ بالخلخلة أولا ..

ومضى « ستراتا » يصدر تعليماته وهو يضغط على الاسفين بكل قواه :

ـ لنستمر .. لنستمر ..

وتحرك الحجر فوق الحصى تاركا مكانه الاصلي .

ـ حسنا .. حسنا .. الآن أستطيع العمل في جوانبه الاربعة ..

وعاد يكرر « حسنا » بخشونة باسمة ونظر الى أسفل قليلا في عيني « ناستا » تقفز كالعصفوزة ، باحثة عن مخبأ !.

ونفض « ستراتا » الغبار عن يديه ثم مسح راحتيهما القذرتين :

ـ حسنا .. كل شيء على ما يرام .

وقالت كيفيتا :

ـ وهل بالامكان جعله أحسن مما هو عليه الآن ؟

وجلسوا جميعا على حافة الحفرة تحت ظل شجرة الدردار التي نفذ شذى رائحتها العطرة عبر أنوفهم ..

قال « ستراتا » :

ـ أخالكما تريدان تناول شيء من اللحم ، رغم أنكما لستما فأرتين !..

ـ نعم أريد .. لو أعطيتني ..

ـ هذا يعني أنك لا تنوين أخذها بالقوة ..

ـ أوه !.. انني لا ولن أحلم في أخذها بالقوة ..

ـ ها .. ها .. أي طريقة مضحكة في أخذ الاشياء على طريقتك هذه أيتها الامرأة ؟

ـ حسنا .. ولكن لماذا تتعب نفسك ؟
ـ انني أعترف أنني لست جذابا ..
فانبرت « كيفيتا » تجيبه :
ـ انها هي الجذابة .. وهي تفهم أكثر مما تتوقع ..
ـ أنا ؟ وهل أتوقع شيئا ؟..
واستدركت كيفيتا متراجعة :
ـ لست أدري !..
وأمسكت « ناستا » بزمام المزاح تريد تبرير سحابة صمت كادت تظللهم :
ـ اذن .. أنت فأر !
فضحك « ستر.انا » وقال :
ـ طبعا .. طبعا . وماذا نكون اذن ؟
وتناول « ستر.انا » من على قطعة خشب ملقاة بالقرب منهم، سكين الجيب التي يحتفظ بها منذ أيام الحرب ، وقطع رغيف الخبز الى شطائر دائروية وفعل مثلها في اللحم ، ثم قال بأسلوب شاعري :

والآن دعونا نأكل فلدينـــا الكثير من الوق ..
الوقت الذي لا قيمة له ـ هذه الايام على الاقل ـ .
ان وقت الحرب لا يمكن أن يحسب وقتا ثينا ..

وقاطعته « ناستا » محاولة بعث الامل في نفسه :
ـ الطقس جميل .. أليس كذلك ؟..
فأجابها « ستر.انا » :
ـ وأي شيء لا ترينه جميلا يا ناستا ؟!
مدت ناستا يدها اليسرى تحت فجوة ركبتها بينما استند مرفقها الابيض العاري على حافة فخذها .. وأدارت الجانب الداخلي من مقدمة ذراعها باتجاه جسمها وهي تمسك بالخبز واللحم في يدها ، ثم رفعتهـــا الى فمها ، كان ظهرها مستقيما وخصرها ناحلا .. وكانت تنورتها ـ وهي جالسة ـ تكشف عن كل شيء !.. كأنها لا تخبيء شيئا ، كأنها أباحت كل ما تمتلكه ومنحته للريح اللطيفة .. وأفلتت من بين شفتيها ابتسامة عريضة اذ عرفت لحظتئذ ـ أكثر من ذى قبل ـ ما كانت تتميز وتتنعم به ..

« وكيفيتا » هي الاخرى واضعة مرفقها على ركبتها ، راحت تمسح وجهها بأصابع يدها اليسرى ، محاولة اخفاء أسنانهـا المتكسرة .. كان لديها الاستعداد للكلام طول الوقت ، تتحدث عن ثيابها الممزقة .. تتحدث عن القمح وعن كل شيء يخطر ببالها ، رغم أنها تشعر أن الشخصين اللذين تتحدث اليهما لا ينصتان لها الا مجاملة ، وينظران اليها على أنها مخلوقة تحاول سرقة شيء يخصهما .. شيء لا يخص أحدا آخر ولكنه يخص كليهما .. على أنها ـ « كيفيتا » ـ كانت تقذفهما بنظرة جانبية طويلة من وقت لآخر ، ولكن ذلك لم يؤثر على روحها المرحة .. واستمرت تتحدث اليهما ، وقالت لهما كيف أن قطعة صُغيرة من الخشب ـ ملتصق بها خطاب ـ سقطت على منضدة مديرة المدرسة وكم كان مخضرما ذلك الذي رماها ..
وسألها « ستر.انا » :
ـ وماذا يقول الخطاب ؟!
ـ انه مكتوب بالايطالية !..
وتكلمت « ناستا » للاجابة عن « كيفيتا » بشكل أوضح ، وصوتها ينبعث كرنين الجرس :
ـ انهم المناضلون أولئك الذين كتبوا لها لكي ترحل من القرية ..
ـ هم !! ضحكت « كيفيتا » لبرهة قصيرة ، لانها كانت هي أيضا تعرف فحوى الخطاب رغم أنها لم تقرأه البتـة .. والحقيقة هي أن القرية كلها كان تعرف كل شيء عنه باستثناء « ستر.انا » ..
ـ هذا حق !.. يجب عليها أن تعود من حيث أتت ..
وأردف « ستر.انا » قائلا :
ـ انني أعرف أنكن شغوفات فقط بمطاردة الحظ والقبض عليه ..
فردت « كيفيتا » :
ـ الحظ بأيدينا لبعض الوقت !
وتلتها ناستا تقول :
ـ ان المديرة امرأة جميلة ..
فعقبت عليها « كفيتا » ساخرة :

ـ بلى .. انها جميلة ، لكن فمها فقط مثل فم الشاة ، هكذا .. وفتحت يديها ، فمها لتعطي دليلا على ما تقول ..

وقرعت « ناستا » أجراس ضحكتها :

ـ ذلك صحيح .. انها تحاول اخفاء أسنانها بعض الشيء ..

قالت كيفيتا :

ـ انها بيضاء .. بيضاء فقط ، وهذا كل ما بها ..

وسأل « سترانا » كيفيتا وسط تشجيع ضحكات « ناستا » بينما انهمك في تناول قربة النبيذ فمسح فمها وقدمها لهما :

ـ ما رأيك فيما لو جاء رجال المقاومة الشعبية الآن وأخذوك الى السجن ؟..

فأخذت « ناستا » زمام الاجابة بسرعة :

ـ حسنا .. دعهم يأتون ..

فتطلعت اليها « كيفيتا » ، وصفعت فخذها محتدة وقالت :

ـ سوف نعطيهم اياك !.. دعيهم يأتون ..

ـ أنا ؟.. أنا لا أسمح لاي شخص بأن يزحزحني من قريتي بمثل هذه السهولة !..

ـ اطمئني .. فهناك أناس يستطيعون رعايتك ..

عرفت « كيفيتا » مبعث هذا المرح الذي يلف « سترانا » و « ناستا » انها ـ كيفيتا ـ في الوقت ذاتـه تقاسي من غزير شهوتها ، ان شهوتها تمزقها وتعذب نفسها .. انها ترغب في ألا تكون أقل منهما حظا ان لم تطمع بأكثر . وعلى قدر شهوتها هذه كانت تتمنى لهما أن يبقيا جنبا الى جنب ، لتبارك غبطتهما الى الابد ..

وأدرك « سترانا » أن هذه الرأس الصغيرة كانت تعرف الكثير عنهما .. عرف أن هاتين العينين ـ اللوزيتي الشكل ـ كانتا تنفذان عميقا بطريقة لم يكن يستطيع فهم معانيها بأكثر من الحدس ، تماما كما يفعل شخص لا يستطيع فهم تقاليد قديمة . وعرفت « ناستا » أيضا مبلغ قرب « سترانا » منها ، كم كان مرتبطا بها برباط حب صدوق .. الحب الذي يجمع بين انسانين مسافرين معا في طريق واحد .. انها تعتبره في مرسى يستطيع ارساء رغباته فيه في كل مرة يعود بها اليها ـ في كل يوم .. وتعتبر نفسها المرسى الامين الذي يجعله يقلع بشراعه نحو جمال « ناستا » الناعم الجذاب .. على أنه لا يستطيع التوغل بها بعيدا .. انها تعرفه ومتأكدة مئة بالمئة أنه لا يستطيع الذهاب بعيدا في علاقتهما ، لان ثمة طيبة ملائكية كانت بينه وبينها ، شيء روحي ليس من شأنه الا أن يزيد الامور تعقيدا بالنسبة لها ..

ونهضت « كيفيتا » متجهة الى صفحة التل وتسلقت شجرة عرعر .. ثم عقدت ذراعيها أحدهما على الآخر ، وصارت في وضع جعل كتفيها ورقبتها المائلة ـ نوعا ما ـ تظهر أكثر هزالا من المعتاد . وقطبت « كيفيتا » حاجبيها وهي تنظر حولها الى الصخور والهشيم والكروم ، والى غابات الزيتون وأشجار التين المنتشرة أمامها .

* * *

بلغت الشمس أعالي السماء ، وراحت النسمات الباردة العطرة تصفر من خلال شجر العرعر .. وسمعا في مكان ما من حولهما صرير صرصار ، وهناك ، من خلال القسم الصخري من أعالي التل الذي كان يجثم فيه كرم « باسكو » ذو الشكل المعين ، تحيط به جدران ضخمة ، جاء صوت معول يعمل في الصخر .. كان القميص الابيض للرجل الذي يعمل هناك يظهر لهما من بين أشجار الزيتون ..

وتسارعت رياح الظهيرة الفتية النظيفة ، تأتي مبتهجة في طريقها من البحر .. وأخذت تلامس الاشجار ، وتنحني لها أوراق النباتات والاعشاب . وكانت تراقص أغصان الزيتون ، كما لو كانت نشوى فرحة بمسيرها نحو الشرق ، الى احدى ولائم ما بعد الظهيرة ..

ناعمان هما كما « ناستا » ..

رنان هو صوتها ..

عطر هو جسدها ..

ونهض « سترانا » على قدميه .. التقط حصيات مفلطحة ملساء ، وراح يرميها في الوادي وكأنه ولد صغير ..